الغزال العاشق

صابرين الصباغ

الغزال العاشق / رواية
صابرين الصباغ
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة . ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٥٢٢٢
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٩- ٦

الغزال العاشق

رواية

صابرين الصباغ

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

ريحة أمي يا ريحة الجنة

وإن غابت أمي غابت الحَنَةْ

(ربِّ ارحمها كما ربتني صغيرة)

الفصل الأول



إتشيب

رموش العين

ولا غلاك مجا دونه غلا



بين الرمال والصخور والجبال وأدوية عابسة غاضبة مكفهرة.. الصبار وأشجار جافة لا تعرف ألواناً للحياة سوى اللون الأصفر الذي يفترش ملامحها كأنها تعاني أنيميا الاخضرار.

بيوت حجرية صفراء متباعدة مترامية دون نظام.. يفصلها عن بعضها أشواكٌ وعشبٌ أصفرُ يتحمل جفاف حَلقه من العطش .

تسير أقدامٌ قويةٌ اعتادت الرمالُ والصخورُ عناقَها، وجلدها السميك المتشقق جعلها تتحمل الأشواك حتى أنها لا تشعر بأسنانها وهي تخزها .. قبلات الشمس العنيفة جعلت بشرتهم سمراء طينية، فلا الهجير القاسي ولا الخماسينية المجنونة تستطيع هزيمتهم .!

لا ترى مظاهر الحياة إلا من حيواناتهم التي ترعى هنا وهناك تنقب عن شيء أخضر تقتاته .

لكن وسط هذا الجفاف القاتل تجد الحياة تستيقظ خلف الجدران بكل فرحها ومعاناتها .

سلمى تتبخترُ في محيط أنوثتها.. تفتحت ورودها وازدهرت رياحينها.. ربتت الشمسُ على وجنتيها أحالتهما إلى سمرة مضيئة، جسدها المرمريّ نُحِت بيد فنان وعصافير الحسن تُغازلها ...

شعرت به فالتفتتْ إليه ...

رأتهُ ينتزع قلبها من بين أضلعها.. تلعثمــتْ وارتعــشتْ أطرافها فنضجتْ روحها داخل أوعية سنينها.

راحت تجمع الحطب والجذور الجافة من الهضاب فسعى خلفها.

بأول لقاء بينهما.......

خرجت كلماته من بين شفتيه ملتهبة بحرارة الصحراء تلفَحُ أذنيها، تحرق أشواك صبار نبتت على مفارق عمرهــا، تُزيــل رمال الحزن من فوق خيمات صبرها .

قد أحست بأنوثتها فذابت في رحيق كلماتــه ..ضــرباتٌ سريعة متدفقة ببندول قلبها تلهثُ خلف حروفه حرفاً ..حرفاً ، سألها:

- وين[1] ماشية ..؟

- نلم حطبْ يا حميد .

علمتها حياتها البدوية والعيش في الصحراء لغــات عديــدة للطيور والجوارح والزواحف .!!

اليوم فقط أضافت لغة جديدة إلى الباديــة.. لغــة للرؤيــة والحس معاً، يلتفت صوبها شارد الذهن عيناه تخترقان دواخلها تبعثان إليها برسائل أنينه :

---

[1] إلى أين .؟

– آه يا سلمى .. ريتك[٢] تاخذي ضلوعي تحرقيها .. دايرة[٣] كيف القضبان اللى بتسجن قلبي ما إتريده يكون يا لامنك[٤] ، نار الدنيا ما تنقاس بالنار اللي بكبدي من بعادك عني .

تنظر في عينيه ، تسترق السمع إلى وجيب قلبه المكلوم فتسقط كلماته مطراً على صحراء جفافها المتـرع، تُنبتُ في روضة قلبها سوسنات العشق ، تتذوق الهوى الذي لم تكن تعرفه.. شعرت أن الأرض والرمال والبيداء تغوص بها سنيناً .

– نا[٥] أكثر منك يا حميد .

يلملم أعواد الحطب يربطها في حزمة واحدة ويرفعها فوق رأسها

هامساً :

– إنْظِري[٦] بيضيع وما يرجع إلا بعد ما نراعيك بعيوني .

مدَّ يده يودعها.. أحست بارتجافات قلبه بين يديها ودقاته اللاهثة سرت بين شرايينها ..!!

أسرعت الخطى عائدة تحمل حطباً برأسها ونيرانٌ تتأجج بصدرها.. رقصت نفسها حول نفسها والفرحة تتقافز من بؤبؤ عينيها تسأل:

---

٢ ليتك

٣ كأنها

٤ بجوارك

٥ أنا

٦ بصري

- أمتيَ[٧] نلقاك يا حميد ..؟

لم تدرِ كم من الوقت - اليوم - الدهر قد مرَّ عليها إلى أن وصلت إلى مترلها وهى تُقبل تلك الفروع الجافة الـتي كانـت سبب اخضرار أيامها، الفرن موقد تُلقم فم الفـرن بـالأعواد الجافة

قائلة ..

(معاه ماقدرت ننوض .. غلا جديد لافاي لخاطري)[٨].

صارت تقذف أعواداً كثيرة.. كثيرة وودت لـو تقـذف بكومة الحطب كلها مرة واحدة حتى تنفد وتذهب لإحـضار غيرها .

تدهش أمها :

- إيش كل هالحطب..؟ النار هدي ما تكفي نسوي[٩] عليها عشانا ؛ تكفي إنديروا[١٠] عليها عشا فـرح شـوي شـوي عالحطب بالكي[١١] النار تسرح فينا .

تصرخُ للداخل :

---

٧ متى

٨ معه لم أستطع النهوض .. حب جديد لمحته روحي

٩ ننضج

١٠ نعملوا

١١ اخشى

ليتك يُمي تحطين إيدك على صدري بالكي تحسي بالنار اللي بصدري من غلا[12] حميد ..

همستْ لنفسها :

(كبرت نار .. شاطت نار .. سوى عشاه جار الجـــار .. على صهيدا[13] نار الغلا).

ابتسامة خجولة تفترش وسادات وجهها إذ ترى ملاكهـــا يتراقص أمام ناظريها بين موجات النيران المتلاحقة بـــالفرن ، يبتسم لها ..!

نهضت من جلستها مسرعة خارج المنزل .

جلست ببيت البوادي (الخيشة) انسحبت من بين أخواتها تلهو بعنزتها الصغيرة التي تجلسَ بين قدميها تُـــداعب بيـــديها شعرها الناعم، تُناجيها بصوتٍ صموتٍ فترد عليهـــا بـــصوتٍ حنون :

(إتشيب رموش العين ولا غلاك يمحا دونه غلا)[14].

أخواتها يتحدثن ...

لا تسمعُ إلا صوت قلبها وصوتاً آخر قادماً من بعيد .

---

[12] العشق

[13] حرارة

[14] اتشيب رموش العين وحبكم لا يمحيه حب آخر.

إذ برقت عيناها، اتسعت حدقتاها، اصـــطكت مفاصـــلها فجأةً حين لمحته يمر أمامهن جميعاً. أحست برجفـــة تـــسري في أوصالها .. رمقها بنظرة خاطفة تحمل سؤاله : متى أراكِ .. ؟ لم تهبط عيناها من فوق درجات جبينه فأجابت بعينيها : قريباً يا حميد القلب .

سرعان ما تبدَّلت الأيام والليالي الطوال البطيئة .. الفجـــر يُخاصم أخاه والسهد يأكل مآقي العيون بنهم ..

هَرعت فراراً إلى الهضاب بحثاً عن نبضها الذي نبـــت لـــه رَجُل.

الحطب وأعواده الميتة كثيرة أمامها تتساءل وهي تخطو فوق حطب عمرها سعياً .

- وينك ياحميد .؟

يتشققُ وجدانها بجفاف غيابه فانطفأت مشاعل عينيها، صُمَّ القلب عن الوجيب .. شعرتْ أنها لا تجر قدميها بل حجـــرين من صلد، أعوادُ الحطب تشاكس قدميها تتأبطها وهي لا ترى حطباً ولا قشاً.. لا عوداً أخضرَ أو يابساً .!

كانت صحراؤها بالأمس ممطرة تـــتـــزينُ بالزهور البريـــة فلماذا خاصمتها الطبيعة ..؟

غائبة سلمى عن سلمى ، ما زالت طيور القلق تحوم حـــول منعطفات وجهها.. تسلمتها صقور اليأس فاستسلمت لها.....

وفجأة..! لمحت (حميد) خلفها.. التفتت صوبه.

دون تفكير ألقت بنفسها بين ذراعيه باكية.. لا تعرف كم مضى من الزمان عليهما وهما جسد واحد - قلب واحد.

قالت :

(غيبة اللي يسقوه ، عليك ورد يا نويرتي ذبل)[15] .

قال :

(إن كان غابوا يجوه .. يسقوه لو نواره سقط)[16].

غربان الجفاف كانت تترصد عناقهما الطويـــل، ذهبـــت الغربان فأخبرت أهلها، قبيلتها ..

صارا حديث الرجال ، النساء ، الأطفـــال ، جرابيعهـــا ، صبارها وحتى رمالها .!

واستيقظت عاصفة الصحراء وعاداتها البالية لتـــبني بينـــهما جداراً لا يستطيع الحب بأعتى معاوله أن يدكه .

حاول حميد أن يُسكت الجميع.. تقدم لخطبتـــها فـــرفض أهلها.. تفرقا وتمزق القلب الحزين .

---

١٥ غيبة من يسقيه حطت زهو الروح بذبل.

١٦ إن غابوا عنه حضروا لريه حتى لو أزواله ذبلت .

طيور الحزن تسكن أعشاش روحهـــا، أشـــجار عـــشقها سجدت على الأرض باكية وقد صارت الصحراء أكثر قـــسوة من قبل وأشد هجيراً.

أفاقت من غيبوبتها الطويلة وجدت نفسها - مع رجـــل لا تعرفه - رغم مرور شهر على زواجهما، لكنـــها لا تعـــرف وصفه، كأنها لم تنظر إليه منذ تزوجها.. فارتمت في آبار يقظتها بعدما أفاقت على صوته :

- لماذا استيقظتِ مبكراً .. ؟

- ما نمت ..

- لماذا لم توقظيني .. ؟

- تركتك ترتاح - همس لنفسها - تركتك بيش[17] نرتاح نا[18].

- أنا ذاهب إلى المقهى .. أتريدين شيئاً .. ؟

- لا ما نرديش[19].

يحاول — زوجها — إسعادها لكنه كان دائم الخروج مدمن الجلوس بالمقهى ، لم يصبها ذلك بالضجر فلا فرق في وجـــوده من عدمه لديها .

---

[17] حتى
[18] أنا
[19] لا أريد

تهطل عليها – أمطار ذكرياتها – فاغرورقت حياتها بالدمع .

– ليش[٢٠] يا شعيب ..؟ الراجل ما فيه عيوب .

– تريدينا نصيروا قطعة خبز يمضغوها بفــواههم يقولــوا جوزها له بيش[٢١] يداري فضيحتها.

– إيش[٢٢] هالكلام اللي تقوله ، أنت تعرف سلمى .

– وإنتي ما تعرفيش الخلق .

خرجت من عنده مكلومة حزينة ....

تنظر لسلمى تحرك وجهها يميناً ويساراً ليخبر سلمى بــرأي أبيها .

تصرخ في أمها والجميع ....

– إنريده[٢٣] ، إنريده يكون راجلي[٢٤] حنقتل روحي .

– سلمى .. بوكي[٢٥] يقتلك لو سمعك تقولى هالكلام .

يمر حميد أمامها هائماً على وجهه فاقداً شهيته للحياة.

فتقول:

---

٢٠ لماذا

٢١ حتى

٢٢ ماهذا

٢٣ أريده

٢٤ زوجي

٢٥ أبوكي

(هِذْ من السببْ فيه .. خطا عزيز لو كان والدي)[٢٦].

تهرع إلى الداخل باكية لعلها تروي أعواد حطب روحهـــا الجافة فتزدهر لهما ..

يعيد الكرة حميد .. مرة ومرات ....

ينهره أبوها الآف المرات ..

كنت أفر من وجع قلبي وابتعاد حميد وصلابة أبي وقســوته علينا إلى بيت عمي حيث أجلس مع ابنته التي كنـــت أحبـــها وكانت ترق لحالي وأيضاً كثرة زوارهم كانت تنسيني بعــض وجعي وحزني.

زوجة عمي " نقاوة " سيدة متمرسة في العـــلاج البـــدوي لطالما كانت تداوي الكثيرين من النساء والرجال والأطفـــال، فكان بيتها كالمستشفى لا يعرف أبواباً مغلقـــة.. فهـــي ابنـــة المرحوم الشيخ "مستور" الذي توفي ..وقد كان يغني النجع عن المستشفيات والأطباء ..كان يعالج الكسور و الصداع ووجـــع الرأس والعيون إلخ..

ابنته نقاوة ورثها هذه المهنة التي كان يفعلها لوجـــه الله ولا يتقاضى عنها أجراً .

---

٢٦ قاتل الله من كان سبب بعدنا حتى لو كان أبي .

ولهذا عمي لم يعترض على علاج زوجته لأهل النجع لأنه ثواب ولوجه الله، فكانت تسمح لنا بالجلوس معها وهي تقوم ببعض الوصفات لأن معظم الحالات من النساء، فقد كان الرجال يخجلون من أن تطببهم إلا من اضطُر لها .

كانت تعلم ابنتها هذه المهنة حتى لا تموت بموتها .. فكانت تتعلم على مضض، لم تكن تروق لها ولا تحب أن تخدم الناس ولا أن تسمع شكواهم.. بل كان كل ما يهمها جمالها والاهتمام بوجهها وزينتها.

أما أنا فكنت أهتم وكنت أملأ بها خزينة ذاكرتي، كنت على يقين بأن كل ما نتعلمه ونخزنه سيأتي الزمن بلا شك بمثله وسنحتاج إليه.

- إيش فيك يا سلمى

- والله يا زينب بوى[٢٧] رافض حميد.

- هو بوكي لسه معارض .؟

- أيوة وراسه وألف سيف ما يوافق .

- والحل يا سلمى .. إيش رايك إهربي مع حميد وسافروا مصر .

---

٢٧ أبي

- ياناري هربوا كيف يازينب .؟ وبسوي وأمسي إيش يديورا[٢٨] ..؟ تعرفي إيش يقولوا الخلق .؟ حيقولوا إني وحميد خطينا[٢٩]..! كيف نخلي بويا يعيش عمره وهو مطاطي راسه، لا يا زينب

- يا هبلة بكرة ينسوكي .

- ونا كيف ننساهم .. كيف نعيش بلاهم إسكتي الله يهديكي .. اللي يجي غلط يروح بسرعة صدقيني .

- إستني نشيل عدة الشاي ونلم هالحاجات قبل أمسي ما تزعقلي[٣٠].

- من اللي كان عندكم يشرب شاهي ؟

- من شوية كانت هنا موزة بنت الحاج علي .

- كنها إيش فيها ..؟

- غلبانة .. أجوزت لها سنتين وما حبلت[٣١].

(عزيز من دعاى عليه .. متبوع ماجنينه رافقه)[٣٢]

- وش دارت[٣٣] لها أمك.؟

---

٢٨ ماذا يفعلون ؟

٢٩ أخطأنا

٣٠ تنهرني

٣١ لم يحدث حمل

٣٢ غالي من دعائي عليه حتى جنيه لم يحضر

- قالت لها على حاجات تعملها وعطيتها السَقطْ .

- أي سقط ..؟

(عندما يحدث لإحداهن إجهاض تمرغ المتأخرة بالإنجاب بالجلوس على الجنين المجهض (السقط) وهو دافئ .. أو يتم تمليحه قبل تخليقه وتستحم فوقه ثلاث مرات في الجمعة من كل أسبوع .. أو تقطع غيط باذنجان أسود سبع مرات .. أو تمر بين المقابر ولا تتحدث مع أحد ثلاث مرات ..أو تستحم فوق عقد من الكهرمان موروث .. وآخر شيء تفعله لو لم تنجح هذه المحاولات تستحم فوق (الكباس) تمثال من النحاس على شكل رجل لو لم يجدنه من النحاس يقمن بعمله من الطين لمدة ثلاث أيام جمعة).

- وتجيب نتيجة ها لحاجات ..؟

- والله يا سلمى فيه ناس جابت معاهم نتيجة من طريقة واحدة وواحدة من طريقتين .. وواحدة ولا طريقة جابت معها.

- والأخيرة هذي[٣٤] وش تسوي[٣٥] ..؟

- أمي تقول ما فيش أمل إلا بذكر الله والدعاء له وتقعد تدعيلها واجد[٣٦] وتخرج يا عيني ودموعها على خدها .

---

٣٣ ماذا فعلت ؟

٣٤ هذه

٣٥ ماذا تفعل ؟

٣٦ كثير

- الله يعطيهم ..

تستأذن سلمى للعودة إلى البيت ......

زينب تنادي سلمى .....

- بت يا سلمى .. لا تنسي مصر .؟

- إنكتمي يا هبلة .. قال مصر قال .

تلتف الليالي حول قدم حميد وهو يدور حول بيتها.. كـــل أمنيته رؤيتها ونظرة من عينيها ليقرأ سطورها المكتوبة بمداد من دمع فراقه.

(عزيز مقعده ماطيل .. ألفاظه أبقى أمغير بالنظر)[٣٧].

يقف أبوه بوجهه غاضباً :

- ماكفاك[٣٨] بوها يمسح بكرامتك َلرض وقل قيمتك قـــدام الناس ، فيش ترجى تبوس كراعه[٣٩] ليش ما هنَكشِ[٤٠] غيرها..؟ إن شاء الله بكرة نعدي[٤١] نخطبك بنت الشيخ ياســـين عمـــدة الإجناشات[٤٢] .

---

٣٧ حبيب لم يطل بقائه حديثه أصبح بالنظرات فقط

٣٨ ألم يكفك

٣٩ قدميه

٤٠ ساقي

٤١ نذهب

٤٢ اسم قبيلة

تبكي سلمى وتوقظها من غفوة ذكرياتها.. تحرك جنينها ..
بدأت تتحسس بكفيها تكور بطنها ليعلن عن قدومه .

فأطلقت عليه اسم " حميد " ..!!



الفصل الثاني



لو كان كسر

جبرناه دقدق

عزيز فينا كل شيَ



بأسم حميد الصغير شعرت بزهوة انتصارها على أهلها،قبيلتها ، طقوسهم البالية .

استكانت لحميد الصغير ، هامت به عشقاً فنشوة الأمومة ملأت فراغات نفسها ، سدت الثقوب التي تنسال منها آلامها.. حبها لحميد صار مضاعفاً أمومتها وغرامها القديم يتدفقان معاً عبر شرايينه .

تتحمل الأيام .. كم هي سعيدة إنها تصرخ باسمهُ دون أن تخشى أحداً ، تناديه تتمنى أن يجيبها حميد قلبها .... فتتذكر...

– سلمى .. بكرة دخلة[٤٣] حميد على بنت العمدة .

– ياقلبي المذبوح بايديهم ، ليش يقتلونا ، إيش درنا[٤٤] نـا وياه..؟

– سلمى .. بوكي يسمعنا يقتلك .

– إيش يدير أكثر من اللى داره[٤٥]؛ قتلني لو يبي[٤٦] يقتلني مرة أخرى يجي[٤٧] .

(ملا مخالبه من الكبد .. غلا عزيز ماجا سهل)[٤٨]

---

٤٣ زفافه

٤٤ فعلنا

٤٥ فعله

٤٦ يريد

٤٧ يبقي

تمتلئ الدنيا بالزينات .. تُشيد سرادقات الأفراح وبقلبها تنتصب سرادقات حزن تقف فيها مشاعرها تتلقى العزاء في موت حبها.

يتحرك نسيج الخيمة التي تبكي خلفها ليرتعش نسيج نبضها حتى شعرت أنها تقاسمهاحزنها .

- سلمى .

- مَنْ .. مَنْ .

- حميد .

- حميد .. آه.. تتجوز و تسيبني ..؟ مش قلت تحارب الدنيا كلها عشاني حميد راني[49] نموت لو تفارقنا .

- ريتهم[50] كفنوني ولا زفوني لغيرك .

(لو كان كسر جبرناه .. دقدق عزيز فينا كل شيّ)[51]

- إيش ندير من غيرك ، وكيف تكون الدنيا دنيا ..؟

- زروني[52] عليها ، والله مانريد غيرك وليّة لكن بوكي الله يسامحه ، قتلنا .

---

٤٨ غرز مخالبه في الكبد .. غرام حبيب لم يكن سهلا

٤٩ أخشى

٥٠ ليتهم

٥١ لو كان كسر واحد جبرناه .. الحبيب كسر فينا كل شيء

– لو الدمع يردك[٥٣] كانت تسيل من عيوني بحار وماكفتني.

– سلمى هم يذبحوني وبكلامك هدا [٥٤] تساعديهم في قتلي.

– الله يسامحك .. نا نقتلك طيب كيف يقتل المقتـــول ..؟ إقتلوني قبلك ألف مرة .

ولحن من نشيج على غناء من وجع يشتركان فيـــه معـــاً . أختها تصرخ ....

– سلمى .. بوكي جاى خشي[٥٥] جوه .

(إن غابوا تحوس العين .. عزاز عودونا عالرفق)[٥٦]

تطلق زفرة حارة توقظها من غفوة ذكرياتها ....

تمر الأيام فرحة بحميد لكن زوجها لاهٍ عنهما بأصـــدقائه.. تدخل أمها.

– وينك[٥٧] ياسلمىٓ .؟

– هنا يُمي[٥٨] تعالي .

– هاتي حميد .. حنعدي نطهره[٥٩] توا .

---

٥٢ غصبت

٥٣ يرجعك

٥٤ هذا

٥٥ ادخلي

٥٦ إن غابوا تجهد العين .. أحباب عودونا على الرفق والحنان

٥٧ أين أنت؟

٥٨ أمي

- حرام يُمي لسه صغير .

- لا هدى سنة عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

- عليه الصلاة والسلام ..إنجي[٦٠] معاكي ..؟

- لا ماتجيش عشان قلبك مايوجعكش .

تغيب الأم ساعتين وتعود تمد سلمى يدها لتأخــذه منــها وترضعه لينسى الوجع .. فلا تعطيها الولد وتصرخ فيها .....

- عدي بسرعة حطي[٦١] رجلك تحت الميــه المــسقعة .. بسرعة .

- ليش[٦٢] يُمي .؟

- روحي بسرعة إفتحي عليها المية ولما تجــي[٦٣] نقولــك ليش.؟ عادت سلمى بعد قليل وتنتظر الإجابة من أمها .

- شوفي.. المية الباردة تبرد نارك علــى ولــدك[٦٤] وتــبرد جرحه.

- كيف يُمي ..؟

---

[٥٩] ختانه
[٦٠] نذهب
[٦١] ضعي
[٦٢] لماذا
[٦٣] تعودي
[٦٤] ابنك

– والله ياسلمى مانعرف بس أمي كانت تـــدير هكـــي[٦٥] وهذى عادة قديمة عندنا .وبعدين .. مش قالوا الجنة تحت اقدام الأمهات .

– شي غريب .. لكن ماخسرنا شيّ ..!

تمر أيام فيطيب جرح حميد الطفل ودون أدنى مقدمات ...

بدأ ينحل قوامه – حميد – تشقق جلده كأنه أرض جـــدباء ابتلعت الصحراء أنهار صحته فباتت تحمله بين يديها كجـــرح ينزف في جسدها ..!

احتار الأطباء في تشخيصهم ، أعلنوا هزيمتهم أمام مرضـــه الغريب .

تصوب عينيها إلى الله ضارعة وإلى زوجها الـــذي لم يأبـــه بشيء ، تركها تنوح على طفلها ورحل إلى أصـــدقاء المقهـــى فبدأت الوساوس تنهش عقلها .

– وينك ؟ فايتني لوحَدى وولدى مشتاجع[٦٦] ..؟

– أعطيتك نقوداً لتذهبِ به إلى الطبيب .

– إنريدك[٦٧] معايا .

---

٦٥ تفعل هذا

٦٦ مريض

٦٧ أريدك

- ألم أذهب معك من قبل ..؟

تصمت وقد وضع الحزن كفه على فمها....

تنتظر رحمة القدر وسيفه في آن واحد - حب حميد يقتل مرتين - بخنجر عليه بصمات أبيها وقبيلتها وآخر ما زالت تجهله .

تعود إلى منزلها مستسلمة لآهاتها ولوعاتها المكنونة .

تقابله — زوجها — ينظر في عينيها مبتسماً :

- تمنيتُ أن ترين محمداً وأنا أتغلب عليه اليوم بالمقهى .!

تضغط على شفتيها مشمئزة من حديثه .

يهم بالجلوس .. يلتهم الطعام بشراهة يشرب ويتجشأ بصوت مسموع .. يتمتم بفوزه الساحق بالمقهى شارحاً فرحة رواد المقهى بهذا الفوز ، ملتفتاً .

- كيف حال الولد .. ؟

- كيف ما هو .

- هيا ننام .

- إنريد نرضع حميد .

- دائما تتحججين بحميد فليأخذه الله ويريحنا منه .

- حرام عليك .

- أنتِ تتجاهليني .

- إنت اللى دىما[68] غايب .

يدفع بسيارة غضبه في وجهها لتهشم مشاعرها ..

هل تتخيلين أنكِ امرأة .. ؟؟ أعلمُ أنكِ لا تحبيني .

هامسا لنفسه .....

لماذا أفعل بها هكذا ..؟ هى التي تضطرني لهذا ؛ تظن أنني لا أعرف غرامها القديم ..أو تزرعين ماضيكِ في حاضري — طفلي — سميته على اسمه ليبقى معك دوماً ولايفارقك .؟ مرض حَميدك أو ترغبين أن أدور به معكِ على الأطباء ..؟

أعلم إنك لا تحبيني .. لكن يكفيني وجودك سجينة بمنزلي..! هه أى سجينة ..؟ بل أنا سجينها..آه لو تعلمين كم أحبكِ و أشتاقكِ حتى في لحظات غضبي عليكِ ؛ فأنتِ مُهرة برية شاردة وأنا لستُ بصيادٍ ماهر لقد وهبتُك عمري ألا يكفيكِ ..؟ آه .. لو أني أشعرُ بحبكِ ما برحتُ المنزل لحظة واحدة .. يكفيني النظر لوجهكِ لكنكِ لا تشعرين بي ..حرام عليكِ ..بداخلي نارٌ حارقة تصطلي .. تهملينني دوماً فتصبح

[68] دائما

نيراني سعيراً أهرب منها إلى المقهى ، الـــشوارع ، الحـــارات ، الأرصفة ، أقرأ وجوه المارة من الناس باحثـــاً عـــن وجهـــكِ الصبوح بعيداً بعيداً عن عبوسكِ .

شارخاً جدار الصمت القائم بينهما ينطلق صـــوت حميـــد باكياً ..

هرع إليه تحتضنه فتسقط دموعها مبللة وجهه تغسل جراحه المتقدة ، تطمئن أنه نام .

- إيش فيك ياسلمى ..؟ وإيش داير[69] حميد ..؟

تلتفت صوب أمها شبه باكية والصمت لغتهما .. ثم تصرخ من نارها!

- ولدي يموت يُمي !! جنيني يموت قدامي ومش عارفـــة إيش إندير[70] ؟

- وين راجلك[71] ..؟

- راجلي ..!! راقد[72] .

بصي يُمي لحميد وهو راقد ..

يبتسم مستسلماً ووجهه مستبشرٌ تماماً تضمه – ســـلمى – إلى صدرها يصرخ صرخة مدوية تفرسه تنظر في عينيه وقـــد

[69] كيف حاله
[70] ماذا نفعل
[71] زوجك
[72] نائم

تثبتتا على وجه أمه لا حراك فيهما تلقي رأسها فوق صـــدره منصتة إلى دقات قلبه فتحمله تهرع به إلى الخارج .

– يـــا ولــــــــــدي ...قالتـــها ملهوفـــة ، صـــارخة حميـــــــــد.

يفيق صلاح على صراخها .. تخطف أمها الطفل من داخل صدرها توسده سريره تلحفه بملاءة تربت على كتفي ابنتها .

تنظر سلمى إلى زوجها وقد سالت دموعه مصلوبة فـــوق وجهه ، علامات استفهام كثيرة قائمة بين عيني سلمى وزوجها تنظر الأم إليهما وسرعان ما تعود بجزنها إلى السرير ورقدة حميد المستسلمة .

(غلاك هو جنين الكبد اللي هله ماغيره ضنوا)[٧٣]

– نريد أنضمه بصدري يمي لآخر مرة بـــيش[٧٤] نعطيـــه حبيبه[٧٥] ، إنريد ندفنه جوايا ماتخليهم ياخذوه مـــني ، كيـــف نراعي[٧٦] النور وهو بالقبر ..؟ إتدفيني الشمس وهو بـــردان ، ناكل وهو جعان .

– استغفر الله العظيم ..كلامك هدا يهـــد البـــاقي مـــن عمري.. عَدي توضي وصلي ركعتين لله. هـــدا أمـــر الله .. سلمى تعالى إنريدك تراعي[٧٧] شيّ .

---

[٧٣] حبك هو جنين الروح اللي أهله لم ينجبوا غيره

[٧٤] حتى

[٧٥] قبلة

[٧٦] ترى

[٧٧] ترين

- إيش يُمى ..؟

سلمى يقتلها بكاءها ..

- سلمى شمي حميد .. شميتي البنة[٧٨] الغريبة هَدي ..؟

- إيش البنة هدي ..؟

- ريحة الموت ..

- إيش .. ؟ بنة الموت .. ؟ !

- أيوة .. أذَكريها ولا تنسيها ..ريحة الإنسان تتغير عند الموت تسكن بنة الموت جسمه ، خلتني أمي نشمها نين أدمنتها أنتِ كمان ضروري تعرفيها .

ثم قالت :

(خطيت ياملك الأموات ..خديت ناس نا شوقي لهم)[٧٩]

يرحل عبير الطفولة ؛ لتسكن بدلاً منه رائحة الموت ومسك الحياة الأخرى وترسخ بأنفي.

ألمح بقايا الأشجار الربيعية وقد ارتدت أثوابها الخريفية ، الشمس المنطفئة والنسائم المعتقة برائحة الموت ، أتحسس بين صحوي وغفوتي ملائكة الرحمن بأجنحتها البيضاء وقد احتاطوا بجسدي يبتسمون في وجهي .

---

[٧٨] رائحة

[٧٩] أخطأت ياملك الموت يوم أخذت أحبابا مازلت أشتاقهم

من بعيد يأتي ..

ألمحه في غلالة من نور يقترب و يقترب يدنو يحمل بكفيه طبقاً فضياً لامعاً يلتفون جميعاً حوله وحولي أرمقه بنظرة خاطفة وقد هالني ما رأيت .. إنه حميد ابني بجسد حميد غرامي الأول يتهلل وجهي فرحاً أقوم من مقامي .. أخطفه بين ذراعي تنهمر الدموع – مني /منه – تتحسس كفه بطني ، أنظر إليه شذراً فيهمس لي ...

– ما زلتُ داخلك .

أفيق من غفوتي ..!

كنت معك يا حميد كبيراً – صغيراً .. ليتني لم أستيقظ لأظل أنهل من هوىً وجودكما .

(العين ترضى بمنام ترعى فيه عزيز وتنعمي)[80]

كلما اندلعت أصوات الفرح من بيت حميد وبيت عروسه ، التي سترتدي ثوب زفافي ، ستمتطي هودج حياته تاركة خلفها قلبي المذبوح كأني بها تمسك بيدها السكين يقطر دماً يلعقه أهل قريتنا فرحين.

قبل زفافه بيوماً واحداً ..

[80] العين ترضى بحلم ترى فيه حبيبها وتنعمي بعدها .

مر من أمامنا كأن قدماه فقدتا ذاكرة الطريق ! يلقي عليّ نظرة الوداع مطلقاً لحيته ، الدموع تروى دربه و ملابسه لم يغيرها منذ أيام ونظرة قاتلة من مقتول لقتيلَة .

(حسيت السما في اللرض .. ضباب قارنة يوم فقدهم)[81]

بليلة الحناء تبدأ مراسم الاحتفال ، الجزارون يجلبون العجول والخراف لذبحها ودماء الفرحة كالنوافير تملأ المكان .

يهيأ لحميد أن أبو سلمى يسحلها دون رحمة يدخل بها حلبة الموت ويرفع بيديه السكين وبلا تكبير يذبحها فيصرخ حميد ويهرع إليها فيباغته أباها بطعنة في رقبته فترديه إلى جوارها وقد تزاوجت قطرات دمائهما العاشقة فيتمرغان وهما يتخضبان بدم العشق المهدور .!

يفيق و قد ترك على على جدران روحها نظرته .. دموعه وشوقه وحنينه والوعد بأنه سيكون لها مادام قلبه ينبض .

بكت روحي وحميد يبتعد لتصرخ الأرض تحت قدميه حزينة حتى أني صرخت لصراخها لم أدر قوتها ومداها حتى رأيت أبي يأتي وقد استل بندقيته عندما رأى حميد .

لطمني على وجهي حتى مادت الأرض تحتي لتحتضن جسدي فيضع قدمه فوق صدري مصوباً بندقيته لقلبي ..

---

[81] شعرت أن السماء قد أنطبقت على الأرض يوم فقدتهم وكأنها ضباب

يضغط بقدميه كأن جسدي جلمود وقد قارب قلبي أن يذوب ويسيل من بين ضلوعي .

– هدي[82] آخر مرة نكلمك فيها .. أصحك[83] تجيي سيرة حميد مرة أخرى .

رفع قدمه من فوق صدري لكنها استنسخت لنفسها نسخة جديدة تركها تلهو فوقها مؤلمة موجعة.

قبل أن يرفع فوهتها بثت البندقية في صدر سلمى سراً :

– انصاعي لكلامه.. فلا تعلمين ماذا أفعل بكِ لو فقد أبوك عقله وتقيأت بصدرك رصاصاتي.!؟

مازالت فوهة البندقية مصوبة لصدري كلما تذكرته وهـــو يدهس صدري العاشق .

هرع سلمى بعدما قام أبيها بضربها إلى بيت عمها وزينـــب لتلقي بصدر زينب بعض وجعها فيقل وجيب قلبها

– سيدي[84] .. ريت[85] بوى[86] كان حيقتلني .

والله يا سلمى .. موضوعك شين[87] .نا[88] نعذره في اللـــي يديره معاكى والله يا عمي مادرت[89] شي غلط .

---

[82] هذه
[83] حذاري
[84] عمي
[85] رأيت
[86] أبي

ولو يا سلمى .. النجع كله يتكلم عنك وحميد وهـــالكلام تطير فيه رقابي.

والحل .

الحل عند الله .. فكي روحك[٩٠] من هالموضوع يــا بــنتي خلينا نعيش بكرامتنا .

خرج عمي يستغفر الله ويضرب كفا بكف ويدعوا الله أن يزيح عنهم هذا الهم .

بت يا سلمى .

إيش تريدي إنتي الأخرى .؟

فكي روحك من اللي قاله أبوي .. ســيبك منــه ومــن بوكي.. دول بوادي متخنفين ما يعرفوش الغلا[٩١] .

ليش إنتي تعرفيه .؟

طبعا .. نا غاوية يا بت .

هه .. مين هو .؟

---

[٨٧] قبيح
[٨٨] أنا
[٨٩] لم أفعل
[٩٠] أنسي
[٩١] العشق

عادل .

عادل ابن سعد .. الله يخرب بيتك

ليش إيش فيه .. راجل تقول إيش [٩٢].!!! يرجع من مصر جايب لي قزازة كلونيا . وحمر[٩٣] شفايف .

يومك أسود . وين تراعيه[٩٤] ..؟ وكيف تاخدين منه هالحاجات ووين ..؟

وش فيها[٩٥] نعدي[٩٦] له الدكان .. يحطهم لي جوه كيس الحاجات اللي نشريها من عنده .

أصحك[٩٧] يا بت .. أصحك يضحك عليكي .

ما تخافيش على أختك .. نا صاحيتله[٩٨] ما يقدرش يلعب معي .

الله يستر عليكي .شكلك مش حتجيبيها لبر.

طرقات على باب البيت تهرع زينب لفتحه .

خشي يا خالتي خير إن شا الله إيش فيكي ..؟

---

[٩٢] ليس له مثيل
[٩٣] أصبغ
[٩٤] أين ترينه
[٩٥] ماذا فيها
[٩٦] نذهب
[٩٧] حذاري
[٩٨] مستيقظة

وين نقاوة يا زينب ..؟وين أمك ..؟

إقعدي هنا والساعة تجيكي[٩٩] .

- مرحب يا سلمى .. شخبارك[١٠٠] وكيف أمك ..؟

- مرحبتين يا خالتي رتيبة كنك[١٠١] .. مريضة ..؟

- أي والله يا سلمى إنعنك[١٠٢] ما تشوفي اللي نا فيه .

- مرحب يا رتيبة إيش فيكي خير إن شالله .؟

- إهلين يا نقاوة .. ظهري حيقتلني لا قـادرة نمـشي ولا نوطي[١٠٣] ولا نشيل حاجة من اللرض[١٠٤] .

- ما تخافيش يا خايتي هو برد بالظهر حنديرِ[١٠٥] لك كاس هواء وان شاء الله تكوني بألف خير .

- زينب ..

- نعم يُمي .

- حضري خلطة كاس الهوا (الكَسِرْ)

---

[٩٩] تحضر
[١٠٠] كيف حالك
[١٠١] ماذا بك
[١٠٢] يارب لاتعاني
[١٠٣] أنحني
[١٠٤] الأرض
[١٠٥] سافعل

- حاضر يُمي .

(قطعة قماش بها بعض النخالة (الردة) والملح وطبق به زيت وجاز توضع وفوقها البرطمان فتقوم بسحب الدم الفاسد مصاحبا للوجع .. أو تقوم بتشريط الجلد بشفرة حلاقة بمكان الوجع وتسحب الهواء من البرطمان بقطعة قماش مبللة بالكحول مشتعلة ثم توضع فوق مكان الوجع فيقوم البرطمان بالالتصاق بالجلد مخرجا الدم الفاسد)

أن شاء الله يا رتيبة حتبري[106] وتبقي إيش .

يارب يا نقاوة سلم إيديكي يا خيتي .إنعني ما نشتهيكي[107] .

- خالتي نا حنرَوح قبل ما يرجع أبوى ويتعارك معي .

- طيب يا سلمى .. صملي[108] خالتك رتيبة لبيتها وإنت مروحة .

حاضر دقيقة ياخالتي.

تعالي يا سلمى شوفي إيش جابلي عادل ..؟

لا مانريدش[109].

---

[106] تشفي

[107] يارب لا افتقدك

[108] وصليها لبيتها

تعالي بس .. شوفي صباع الحمر هدا .. تعالي نحط لك .

أمشي الله يخرب بيتك لو أمك شافته إيش حتقولي لها .

ما تخافيش نا مخبيته منها .

والله يا زينب شكلك داخلة على مصيبة والله يستر.

قلت لك ما تخافيش.

لا نا خايفة ..تصدقي يازينب نا ننسى همي نين[110] نجـــي عندكم .

سلمى عرفتي أن حميد حنته اليوم ...

تغرق سلمى في دموع وكأن عينيها مصبات لنهر الحـــزن وهو بحالة فيضان يأخذ في وجهها كل مايقابله من سعادة وأمل في حبها الذي يحتضر الآن .

(بكيت نين غاب الوعى .. بعد أرياف لاقوني إقدم)[111]

يهيم حميد على وجهه .. يذهب إلى المكان الذي احتـــضن عشقهما .. ينظر حوله يتعجب أين ذهبت ابتسامة المكان لماذا يرى كل مافيه عابسًا واجمًا.؟ عصافير الحزن تغني لحن شـــجن

---

[109] لا أريد
[110] عندما
[111] بكيت حتى فقدت الوعى .. بعد أحباب رأوني قديما

وهي تحلق فوق رأسه ..تتعانق الأغصان ولحائها يبكي وحفيف كالنشيج والغيمات تسري في مواكب عزاء .. الصحراء زاد جفافها والطقس ينوح هجيره وهو يعانق هذا الجو المشحون بالفقد والبعد .

ليتدلى من مشنقة العشق فيعفو عنه الناس ويقدمونه إلى مقصلة الزواج وهو يصرخ ؛فهو في الحالتين مقتولاً يود لو ابتلعته الأرض وماعاش دون حبيبته .

يبحث عنه رفقاؤه يتذكرون المكان الذي يجد فيه نفسه .. فيذهبون إلى تلك الربوة العاشقة يجدونه مستلقياً لا يشبه الأحياء إلا من صدره الذي ينتفض من وجع ألم به .

ينهض معهم بعدما أقنعوه بأن عدم زواجه سيسيء إلى حبيبته ولن تجد من يتقدم للزواج بها ، حرام أن يكون هذا جزاء حبها له ثم يأخذونه لبيت أحدهم ويجهزون عريساً كل مافيه ميت عدا قدمين ستأخذانه إلى فراش امرأة هو قبر من قماش كالكفن يُلحد به .!

يجد نفسه بغرفته لكنه ليس وحيدا هناك من ستشاركه فراش عمره .. تجلس على استحياء تنتظر منه أن يدنو منها ..لم يحاول دك حائط الخجل الذي يحول بينهما فتركها وافترش الأرض ونام .

ظلت مستيقظة تبكي وعندما لم تجد بداً بـــدلت ملابـــسها ونامت وقد فقدت فرحة عمرها.

تنظر إليه وهى تنام على وسادة من جمر تأكلها .

تحدثه في نفسها :

إذن كل مايقال عنك وعن سلمى حقيقي أنتما عاشـــقان أأخذك منها وهى تمتلكك ..؟ بعدما سمعت بخبر عشقك لهـــا قلت : الرجل الذي يعرف معنى العشق .. سيحبني مثلما يحبها وسأسعد بقلبك العاشق لم تمنحني الفرصة لأنسيك حب مـــن أطلقوا عليها جميلة النجع ، تخيلت أنك ستفضلني عليها عندما أصبح زوجتك وملك يمينك ، قلت أنك رجلاً كباقي الرجال ستنسى قلبك أمام جسد يحتوي شبابك.. لكن تبقى هى دوماً، الشوكة التي تخز قدم حنيني إليك ..لكن بغبائي أمتلكت جسداً بلا قلب .. ماهذا الذي فعلته بنفسي ..؟ لماذا وقفت أمام قطار عشقكما تخيلتك ستقلني وتنسى عشقها لكن ها أنت تدهسني بمنتهى الشراسة .. لا .. في الصباح سأعود لبيتنـــا وأبي لـــن يصمت على ماحدث لي .

في الصباح .....

طرقات على الباب تستيقظ فتراه يجلس متروياً ينظـــر في الجهة المقابلة .! كأن الحجرة خالية إلا منه .. سعلت مـــرة –

مرتين – مرات عديدة .. نادته باسمه لكنـــه لم يلتفـــت لهـــا فخرجت مسرعة تبكي وألقت نفسها بصدر حماتها .

خالتي ، نبي[112] نروِّح بيتنا .

إيش تقولي ..؟ يوم أسود كيف تروحي .؟ حتكون فضيحة لكْ قبل ما تكون لنا.. الله يهديك يابنتي استني شوي .

دخلت لحميد بمفردها بعدما سمعت ماحدث من عروســه، وجدته جالساً صامتاً كخيال المآته.

ياولدي إيش فيك .؟كلمني نا أملك ستر وغطى عليـــك ، إيش ذنبها البنية[113] ..؟ إيش دارت[114] لك لتفضحها ..؟

ينظر لأمه ويبكي بكاءً حاراً فتجمع رجولته الحزينة وشوقه المحروم ويُتم عشقه بصدرها وتقول :

الله يسامحه أبوها فرق بينكم .. لكن البنت الغلبانة هـــدي إيش ذنبها .؟ الله يهديك طيب خاطرها لو كانـــت أختـــك ماترضى لها بالفضيحة .

تحضرها وتغلق خلفهما الغرفة ...

تجلس فوق الفراش تبكي، يذهب إليها يربت على كتفها.. تتحدث وليتها لم تفعل ..!

---

[112] أريد
[113] البنت
[114] ماذا فعلت

سمع صوت سلمى يخرج راقصاً من بين شفتيها، ينظـــر إلى وجهها لتخرج منه تلك العيون التي يعشق نظراتهـــا .. يمـــسح بيديه دموعها لتبتسم بفم سلمى فيضيع في تفاصيل وجه محبوبته ليلعقها بعينيه وينسى الدنيا كلها ليكون لها وحدها دون شريك فيجمعها بين ذراعيه و.......

مازال الحزن يسكن دروب عمري وقد وجد مني صيداً ثميناً يلتهمه .!

مات حميد وبعده جدته لتعطر رائحة الموت فضاء حيـــاتي وترسخ فيها.

(بعد ربيع زاهي .. تميتي خلا يادارهم)[115]

فأبكي أمي لتبتلع الوحدة باقي ملامح فرحتي .

– آه يُمي .. ليش ماخدتوني معاكم ..؟ ليش يا حميد .. ؟

تمر الأيام تتشابه ملامحها فقط يتغير اسمها ...

مبروك .. أنتِ حامل بالشهر السادس – قالها الطبيب –

إنصرفتْ وطيور الرغبة والرهبة تحيطها من الجهات الست .

هل فعلها حميد حقاً أسكن داخلها إلى الأبد ..؟

رحلة جديدة أخرى من العذاب والهلاوس تناوشها وتفقدها إتزالها ..

---

[115] بعد ربيع كان يملأك أصبحت خالية يا دارهم

- لماذا أجلس في البيت..؟

- صلاح تكلم معايا .. مليت الوحدة .

- اذهبي لواحدة من أخواتك .

- إنرديك أنتَ .

- سلمى .. أنتِ تحبيني ... ؟

تبحث داخلها عن إجابة لكنها ظلت صامتة ليمزق صمتها قلبه فلم يجد عندها الرواء .

تركها ودخل غرفته .. لتبتلع لعابها بغصة لشعورها بالحزن أنها آلمته بطعنه في قلبه .

تلوم نفسها ...

ليتني أريحه بكلمة حتى لو كانت كاذبة .. لا أدري ما كل هذه القسوة التي تسودني أمامه؟!

تمر الأيام المتشابهة في لونها ، طعمها ، قسوتها ، وحـــدتها ، تشعر بمخاض الوحدة والولادة معاً من فرط خوفها على فقـــد الطفل.. ولا تدري لماذا يخنق الحزن دوما فرحتها..؟لم تتألم من المخاض فبركان الألم الذي يسكن سفوح عمرهـــا يـــستطيع إبتلاع كل أحفاده .

خرجت – آية – إلى الدنيا لكنها لم تفرح بها .!!

خافت عليها من رحيل مباغت وفراق يقف لها بالمرصـــاد على أبواب حياتها .

تذكرت يوم كانت مع عمتها نقاوة في حفل سبوع طفلــة جارتهم موزة ..

مبروك يا موزة .. ألف مبروك الله يخليها لك ويبارك لــك فيها .

مرحبتين يا خالتي نقاوة والله بفضل الله وفضلك .. مـــاني عارفة إيش نقول .

قولي الحمد لله .. إيش حتسميها ..

نقاوة طبعا .. نتبارك بيك يا خالتي .

هاتيها ..

- خذي أهي .

(تخلع ثيابها وتبدأ بعصر صدر الطفلة حتى تخرج اللبن الذي به فيخرج كنافورة ؛بهذا لا يكون لعرقها رائحة كريهة عنـــدما تكبر .. (تحليق) الطفلة بقطعة شاش تلفها فـــوق أصـــبعها وتكشت بها فم الطفلة لإزالة الطبقة المبطنـــة لفـــم الطفلـــة ثم أمسكت بكعب قدم الطفلة ولفـــت القـــدم بحـــرص شـــديد

(لتكعبها) أي تضغط على مهبلها حتى لا يكون شكلها سيئاً في كبرها .)

شوفي يا لوزة كحلي عنيها بالكحل الحراق علشان عنيها توسع .

يا خالتي نقاوة لو كان المولود عيل نكحل عيونه ..

أصحك تكحلي عين العيل .. يطلع خجول كيف البنات..
أغسلي وجهه ببوله حيكون قليل الأدب وشرس هاهاها..

- يالا يا لوزة إنديورا[116] السبوع .. وين[117] الشمع والغربال والحمص .

أمسكي يا سلمى رشي الملح ونا حنحط البنت الصغيرة في الغربال وأمي تقول ولوزة تعدي فوق البخور والبنت سبع مرات .

حالاقاتك .. برجالاتك ..

أمي سعاد إتريدك .

خير يا سعاد إيش فيك .

خالتي فطمت ولدي وصدري كنه[118] وارم ويوجعني من الحليب المتكوم فيه .

---

[116] نقوموا بعمل
[117] اين

شوفي يا بنيتي ..

(قالب الطوب الأحمر يتم وضعه في فرن الخبز وهو مشتعل وعندما ترتفع درجة حرارة قالب الطوب يتم أخذه ووضعه تحت الصدر ويتم تغطيته بشيء ثقيل ثم يتم عصر الصدر عليه فعندما يسقط اللبن على القالب الساخن يخرج البخار منه على الصدر .ويكرر العمل مع الصدر الآخر. فيجف الصدر من اللبن تمامًا ويشفى الألم)

تسلمين يا خالتي .

بالشفا يارب.

آية ليتك حضرتي معي سبوع بنت نوارة وكأنه سبوعك يا عيوني . تحمليني ونا إنديرلك الحاجات اللي دارتها[119] عمتي نقاوة ..تعالي ..

سمعت سلمى خبر أن جارتهم أنجبت طفلاً أسمته فتحي وقد أنجبت كل نساء الحيّ البنات .. كانت جارتهن أم الولد فخورة تتكبر عليهن وعندما علمت سلمى ذهبت بجوار آية تغني:

نا بنتي خير من ألف ولد

قسمي[120] من القرعة[121] يقعد

---

[118] كأنه
[119] فعلتها

وراسي م القملة يبرد

ونين[١٢٢] نموت تجي تسرد[١٢٣]

وضحكت ضحكة لها صوت وهي تقبل آية وأكملت :

ماتفرحي ياأم الوليد

تكبر بنتي تاخده

ناكل خيرات بيته

وأنت بعينك واقفة

ضمت آيه لصدرها ونامت ومازالــت تلــك الابتــسامة مستيقظة فوق شفتيها.

ذهبت إلى قبيلتها استشارت بعض القواعــد مــن النــساء نصحنها بدق – مسامير كبيرة – بزوايا البيت عند مسقط رأس آيه بالأرض ولا تقتلعهم حتى لا تفارقها.

فعلت ما قالوا إلا أن الزائر القادم لم ترهبــه المــسامير ولا توسلات سلمى إليه .

لتسقط آيه فريسة غضة له ....

---

[١٢٠] نصيبي من الطعام
[١٢١] الوعاء
[١٢٢] عندما
[١٢٣] تبكي وتصرخ

- مافيش حل قدامك غير فريدة العرافة. (بدون تفكير)..
قامت – فريدة – بإشعال البخور ووضعتها في جلبابها ..
بدأت تمسك طرف الجلباب تنفض الطفلة – آية – سبع مرات بالجلباب ثم فتحت كتاباً .

- بها مس من الجان .

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

خرجت سلمى .. والمسافة بين الروح والجسد أكبر من المسافة بينها وبين العرافة ليتها تستطيع اختصارها ..تتذكر ما قالته لها العرافة .

أضع الورقات في الماء المغلي ثم تستحم آية بهذه المياه وقت صلاة الجمعة ثم أضع آية في قبر لمدة نصف ساعة بين العصر والمغرب .

- هل ذهبت إلى العرافة ..؟

- أيوة .

- أتصدقين هذه التخاريف ..؟

- ليش ما أصدقها . . إيش إندير[١٢٤] ..؟

- الأطباء ...

[١٢٤] ماذا أفعل

- الدكاترة مادار وا شي[125] .

- أتركي الأمر لله .

- ونعم بالله ..نجرب .

- افعلي ما تشائين .

- مش حتجي معايا الجبانة[126] ..؟

- هل أنا متفرغ لكما ..؟

- أكيد موش فاضي كفاية عليك القهوة والكوتشينة .!

- قلت لكِ افعلي ما تريدين .. فلست مقتنعاً .

إلتفت إليها وهو ينبش القبر ..

أسود الوجه كأنه أقتبس من الموت ظلامه شعرت أنه همزة الوصل بين الدنيا والآخرة يداه تملؤهما الأتربة والغبار من نبش القبور فقام بفتح قبر لآية .!

نظرت ــ سلمى ــ داخل القبر كأنه نافذة على الآخرة هبت منه رياح شديدة محملة برائحة الموت .. مد يده ليأخذ آية .

بتردد يذبحها أعطتها له .. وهاهي ابنتها تُدفن أمام عينيهـــا وهي حية .. تُسلمها إلى الموت بيديها ليتـــسلل الرعـــب إلى

[125] لم يفعلوا شيئا
[126] المقابر

قلبها.. تبتسم آية وتنكش بأصابعها الخضراء فى رقدتها؛ ربما أحست بوجود أخاها حميد بجوارها يلعبان معاً فى روضتهما.!

الوقت يمر بطيئاً زاحفاً ، عصافير الجنون تعربد بعقل سلمى ليسبح الخوف فى يم أفكارها .

عادت آية – أخيراً – بعد نصف ساعة من الموت المعلن اليقظ .

ظلت بمترلها أسبوعاً من التساؤلات بلا إجابة .. كانت تحكي لصلاح ماحدث ينظر إليها متهكماً يبتسم بسخرية لاذعة.

حملتها وذهبت بها إلي فريدة العرافة مرة أخرى .

جذبت آية من يد أمها وذهبت بها إلى المطبخ وفتحت صنبور المياه ورفعت أية فوق الصنبور تدور بها في سبع حلقات وتتمتم بكلمات غير مفهومة ثم أغلقت الصنبور وقالت :

– مافي غير هالطريقة .

– تعبت والله ياشيخة فريدة .

– خذى بالك هالمرة حتديري[١٢٧] ....

– إيش لا ما نتحمل ، مش حنقدر .

---

[١٢٧] ستفعلين

- ماعنديش حل ثاني غير هدا.

- لكن ...؟

- يردها الله بقدرته .

عادت - سلمى — ومرت على مترل أخيها.

روت له ماقالته العرافة هاج وثار في وجهها فلم تنطق .

بل نطقت دموعها المستكينة تشتكي .

- إيش إندير ياخويا ..؟ عطني[128] أمل واحد ..!

ربت على كتفيها ..انسابت دموعه مبللة وجهها بين ذراعيه .

انتفض مارد الليل راحلاً فبدت نسائم الصباح على وجه آية وهي برفقة أمها وخالها .

إلى أن أقتربا من ضفة الترعة كما قالت العرافة وضعت سلمى آية فوق - قرص الجلة الناشف- بجوارها شمعة مضاءة.. تَسلم — خالها - القرص بعد أن خلع ملابسه تناوله برفق ووضعه فوق سطح الماء ثم تركه للتيار .. سلمى يملأها الخوف تراقب القرص في حركاته ، سكناته ليذهب القرص بعيداً فينحرف قليلاً .. أدركت أنه لن يعود إليها مرة أخرى .

---

[128] اعطني

صدقت نبوءة العرافة ..

إذا لم يعد – القرص – بفعل التيار إليكِ لن تشفى آية من مرضها سوى بالموت المبكر .

محمود يتابع القرص وجسده كله فى الماء لا يتحرك حتى لايغير مسار القرص .. القرص يبتعد ، سلمى ترتعد فرائصها دموعها تشب فوق خديها حارة وقد فقدت سلمى الأمل فى عودة القرص وشفاء آية معاً .

يصرخ محمود ....

تلتفت سلمى لتجد الرياح تغير حركة القرص فيقترب ، يدنو ، قاب قوسين أو أدنى ، أصبح في ...

يصرخ أخاها ....

– سلمى .. القرص وآية راجعين لك .

يعود القرص وآية والشمعة المضاءة بضوء الحياة إلى قلبها..!

مدت يدها حملت طفلتها ودموعها تنساب مدراراً على وجنتيها أحست بالطمأنينة ، ابتسمت ، بكت،هللت ،كبرت, شكرت الله ..أصبحت الابتسامة لا تفارقها .

يضرب – محمود – كفاً بكف ؛ بعد تلك التجربة الغريبـــة يحمل آية بين ذراعيه لأول مرة يشعر أنها حيـــة تتحـــرك و لا يصدق مارأته عيناه ..!

سلمى تصدقها بكل يقين .

الفصل الثالث

مقسا أكبودهم

ياعين إللي عليك

ماينشدوا



- ماذا بكِ يا سلمى .. ؟

- ولاشي .

- أراكِ سعيدة ..!

- يزعلك .. ؟

يضع — صلاح — أصابعه على وجهها .

- كم اشتقت إلى ابتسامتك منذ زمن لم أرها .. أترين كم تزيدكِ جمالاً..!؟

- حنروح نحضر عشاك[١٢٩] ..؟

يهمس بينه وبينه ...

أهم من ملئ معدتي ملؤ قلبي الذي يتمزق من هواكِ متى تشعري بي ..؟ إنني أحبكِ أريد أن أضمكِ إلى صدري.. مرة واحدة أتمنى أن تشعرين بي ..آه كم من مرة عصرتكِ بين أضلعي لكني أشعر أنني أضم الهواء وليس جسداً ينبض .. إلى متى ... ؟

- العشا جاهز .

- اجلسي .. كلي معي .

---

[١٢٩] عشاءك

- سبقتكَ تعشيت .

- اجلسي .

- آه ... نسيت نجيب أميه[130] .

مستكملاً - صلاح - حديثه الهامس ...

عندها قدرة عجيبة على الهروب ..كفى ألا تستحي ..؟ تعلم أنها لا تحبك ولن تحبك ..لكن مايحدث رغماً عني أحبها لو لم أكن أحبها ماعشت معها كل هذا العمر أعلم أنها جبارة صلبة أتحملها لأن عذابي معها أهون على روحي من عذاب غيابها ..!

- إتريد شي ثاني .. ؟ ليش ما أكلت.

- لا أريد .. ارفعي الطعام سأذهب لفراشي .

همس سلمى لسلمى ، أفكارها تنساب بغزارة ....

ماهذا ..مالذي أفعله ..؟ ماذا يضرني لو قلت له أحبك ..؟ أليس له حقوق عندي بالإضافة إلى طيبته وطاعته الدائمة لي ..ماذا يحدث لو أشعرته بحبي ولوكذباً ..؟

- سلمى .. فينك ..؟

- نفكر في آية .

[130] نحضر الماء

- كيف حالها .. ؟

- كيف ماهي[١٣١] .

- ربنا يشفيها ....

ربت بيده فوق كتفها تلاقت عيونهما بأسئلة خاصة .. نظراتها تشعر بالذنب تطلب منه أن يسامحها فيلتقط صلاح هذه الفرصة :

- هيا لننام .قبل أن تستيقظ آية .

دخلت معه ، ابتلعت ريقها لا ترغب أن تعكر صفو سعادته.. استسلمت لرائحة الفراش اقترب منها .. تحسس خديها بأطراف أصابعه ....

يمر موعد وفاة حميد فتناوشها الذكرى الحزينة ..

(كل مانقول نسيته ، يخطر تبقى لي تنهيته)[١٣٢]

نفس الموعد الذي تنتظره دائماً كأنه محطة يقف بها قطار الموت لتستقله ابنتها آية معلنة الرحيل المباغت ..صفيره يحيا بصدرها فيزيد وجع روحها لكنه خَلفَ موعده و لم يأت.!

يمر شهر - شهران - ثلاثة ..أدركت أن الله كتب لآية عمراً جديداً لكنها لم تشف تماماً ظلت كما هي جسداً نحيلاً

---

[١٣١] كما هي

[١٣٢] كلما تخيلت أني نسيته تتذكره فتخرج تنهيده

لا تأكل كما يجب لكن التشقق بجلدها أقل بكثير مما كان عليه، لم تنفع معها الوصفات .. كما فشل الأطباء أيضاً ...

(طيايير جيش الياس .. مطار خاطرى دايرينه)[١٣٣]

- كيف حالك .. أم آية . . ؟

- الحمد لله .

- كيف حال آية .. ؟

- نحمد الله يا أم علاء .. مشيت للعرافة ودِرتْ كل اللي طلبته مني.

- أرسلي لصفصف .

- من صفصف ..؟!

- سيدة مبروكة وقدم سعدٍ على الناس .

- وين[١٣٤] مكانها .. ؟

- بالقاهرة .. تعالج علاج روحاني .

- نسافر لها ..؟

- لا فقط أرسل لها .. ترسل واحداً من خدامها خلال أسبوع من وصول خطابكِ .

---

[١٣٣] طائرات جيوس الياس هبطوا على مطار عقلي
[١٣٤] أين

- وين تسكن.. ؟

- سأحضر لكِ العنوان .

- أرجوكي .. أرجوكي ماتنسي .

- أبداً إطمئني .

أغلقت الباب خلفها ..بعد أن فتحــت — أم عــلاء — أمامها باباً إلى الأمل .!

شارفت آية على عامها الأول لكنها مستلقية دوما لا تأكل شيئاً يقيم عودها تشرب اللبن فقط فلم تحبو أو تلعــب ترفــع رأسها فقط عندما ترى خالها محمود فتشرق ابتــساماتها لــه ، سرعان ما تأفل وتذهب إلى عالمها الخاص ..

- صلاح .. سمعت عن صفصف .. ؟

- نعم .. ! من أخبرك عنها .. ؟!

- قالت لي عنها جارتنا أم علاء .

- هل صدقتيها .. ؟

- والله ماني عارفة يا صلاح .

- لا تصدقي كل مايقال لكِ .

- إيش رايك نبعث لها جواب ...؟

- كفى مافعلناه .

- نجرب مش حنخسر شي .

- افعلي ما تريدين .

تجري مسرعة على صوت بكاء آية المتدفق بصوت مبتـــور تشعر أنه لا يخرج بل يدفن داخلها فتحملها تهدئ من عاصفتها على شواطئ حضنها فتنام .

الأيام المريضة تمر عليهما باحثة عن بقعة دواء .. الـــشمس تسطع كل صباح وتنتحر في نهاية اليوم وآية كما هي - حيـــة ميتة - تحدثها سلمى بهمس فتحاورها بصمتها .

أعطت أم علاء العنوان لسلمى ولم يبقَ سوى مجئ صـــلاح لكتابة حروف شفائها وشرح مواطن ألمها على خارطة جسدها المنهك .

أنتبهت إلى فتح الباب .. تلفتت بلهفة ....

- صلاح .. هاك[١٣٥] عنوان صفصف .

- صفصف مين .. ؟

- الست المبروكة اللي قلتلك عنها .

- أمازلتِ مُصرة .. ؟

---

[١٣٥] خذ

- هاك الورقة والقلم يا صلاح .

الليل يمر بارداً كئيباً ..

أشعر أن طوله يتمدد ليغطي كافة مساحات عمرينا – أنـــا وآية – جفناي لم يحتضن أحدهما الآخر .

(مقسا أكبودهم ياعين .. إللى عليك ماينشدوا)[١٣٦]

ذهاباً وعودة إلى الشباك تحص النجوم في صحن السماء .. تتوسل إلى الليل أن يرحل ويرسل لها صباحاً جديـــداً كأنـــه صندوق بريد للعافية ليرسل صلاح الخطاب إلى صفصف .

الأيام توائم متشابهة .. ما بين قلبي وسماء الرحمن مائدة مليئة بالدعوات والدموع والرجاء المقطوع الذي أصبو إلى وصـــوله فربما ترد .

من الجلوس والانتظار شعرت بوجع بظهرها لايحتمـــل .. وبحثت في حقيبة ذكرياتها فتذكرت يوم شـــعرت بـــنفس الألم وذهب إلى عمتها ..

- خالتي إيش حالك ..؟ لي مدة غايبة ويـــن زينـــب ..؟ قاعدة جوة ومش راضية تكلم حدا[١٣٧] فينا ..

- خالتي ظهري يوجعني درت[١٣٨] كاس هوا (كسر) وما نفع .. إيش ندير ..؟

---

[١٣٦] ما أقسى قلوبهم ياعين من علينا لايسالون
[١٣٧] أحد

- ما فيش غير الخزام ..؟

- الخزام ..؟

(الخزام : يتم تمرير إبرة بالظهر وبها خيط مجدول ويتـــرك بالظهر وبعد ما يشفى الجرح يتم سحب الخيط الرفيــع منـــه ويشفى الظهر وهناك خزام الأذن .. ولطرفة العين)

- شوفي زينب وتعالي نخزم لك ظهرك .

- ماشي يا خالتي .

- زينب وينك .

- تعالى يا سلمى .

- كنك[١٣٩] يا بت إيش فيكي ؟

- ولا شي

- زينب .. إيش فيكي أول مرة نراعيكي[١٤٠] بها الحالة .

تبكي زينب بكاء حارا ...

- زينب ..لا تكوني

ونداء أمها من الخارج فتسمح زينب دموعهـا ويـذهبان بالخارج لرؤية ماذا هناك .

---

[١٣٨] فعلت

[١٣٩] ماذا بكِ

[١٤٠] أراكي

- مرحبيتن يا سليمة كيفك شخبارك[١٤١]

- الحمد لله إزيك يا سلمى وأنت يازينب ..

- الحمد لله .. (قالتها معا)

- كنها[١٤٢] بنتك يا سليمة ..؟

- خالتي لها يومين ساخنة وما تظمــط[١٤٣] شـــي وتقــول زورها[١٤٤] يوجع فيها .

- أكيد عندها اللوز ملتهبة وساقطة .

- روحي يا زينب سخني شوية زيت وهاتيهم .

- خليك يا زينب حنروح نا نسخنهم .

(أجلست نقاوة البنت بين قدميها وقامت بتدليك مكـــان اللوز من الرقبة وهى ترفع إيديها لأعلى أثناء التدليك وبعـــدها قامت على قدميها في مواجهة البنت ووضعت أصابعها السبابة والوسطى في فمها ورفعت اللوزتين بهما وربطت للبنت زورها بمنديل وخرجت) .

- زينب توخرت[١٤٥] حنجيكي بكرة .

---

[١٤١] ماهي أخبارك
[١٤٢] ماذا بها
[١٤٣] تبلع
[١٤٤] بلعومها
[١٤٥] تأخرت

خرجت سلمى وهى تاركة عقلها مع زينب وتتمنى من الله ألا يكون ما تفكر فيه حقيقة .

- يا سلمى .؟

- ايوة يُمي .تبي شي[١٤٦] ..؟

- خذي الحمْل (غطاء خشن يتم صناعته يدوي من صوف الإبل) وانقعيه في مية طوبة (يتم تخزين مياه شهر طوبة لغسل الأقمشة والملابس والأحمال حتى لا تهترئ سريعا ويطول عمرها .

- حاضر يُمي .

أثناء وجودها بالخارج ....

- يُمي صباح بنت عمي رحيم تنشدك[١٤٧] عن حلة وراثة (وعاء موروث) قوليلها لا بس حتلاقيه عند عمتك نقاوة .

- أمي ليش إتريد الحلة وليش وراثة .؟

- أكيد حدن من عواويلها[١٤٨] عنده أبو اللطيش .

أبو اللطيش (الغدة النكفية) يستعملون اللون الأسود (الهباب) برسم صليب به مكان الورم (الدلجم) تحت الأذن لشفائه .

---

[١٤٦] تريدين شيئا
[١٤٧] تسألك
[١٤٨] اولادها

تفيق على الأمل بابها وهو يدق بابها، تسرع لتتلقى هدية القدر .

- من ..؟

- أنا .... معي خطاب من القاهرة ..

- أرجوك .. إقراه ليه .

" من صفصف .. إلى — آية صلاح - سوف نحضر الأسبوع القادم على أن تنام آية وأمها ليلاً في غرفة مظلمة وسنقوم بعلاجها بإذن الله .. "

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تسال نفسها ....

ياترى هل ستأتي بنفسها أم سترسل أطباء ..؟لكن لماذا في الليل وفي غرفة مظلمة ؟...

بدت تشعر بالقلق وتسلل الخوف وسكن جسدها من تلك الزيارة الغريبة .

الأيام تمر ممتطية سلحفاة .

أول يوم بالأسبوع ....

كما طلبت صفصف .. نامت سلمى وأبنتها في غرفة مظلمة بمفردهما لم يغمض لها جفن . مرت ساعات الليل مع الظلام أكثر فزعاً ليصل النهار متباطئاً كسولا.

جاء صوت صلاح ليوقظ من لم تنم ليلها .

- سلمى .. هل أتى أحدًا ..؟

- لا .. عدت الليلة مرعبة .

- لا أعلم ماذا أقول لك ..؟

- ماتنساش بجواها ماحددت يوم .. قالت الأسبوع الجاى.

- هل ستظلين سجينة تلك الخرافات .؟

- نحنا في بيتنا .. ماخسرنا شي .

مضت الليلة الثانية كأختها ...

القلق ينهش عظامها وعقلها .. ظلت تدور طيلة النهار بالغرفة ، الصالة ، المطبخ ، كإبرة تدور فى محيط القش المراوغ..!

إستسلمت لليلة الثالثة .. ماهى فيه يعجز الوصف عن التعبير عنه .!

تمر الساعات متراخية ..حتى إنتصف الليل ....

سمعت صوت باب الحجرة يفتح - أصابها الهلع - تسمع خطوات تدب ببطء شديد .

ترمق ببصرها خلسة بين جوانح الظلام .

الفصل الرابع

برمت فيك نا والعين

نريد هلك يادار

وينهم



..تيقنت إنها أرجل ماعز لها حوافر فوقها شعر أسود نـــاعم دققت بصرها ، أعادت البصر كرتين يرتدون ملابس بيـــضاء أقتربوا .. أقتربوا من السرير ودنوا أكثر ...

مد أحدهم يده حاملاً آية ثَقلت يده وهو يرفعها لتـــرتطم بجسد سلمى .

صرخت وقد هالها الفزع ألقوا بآية على السرير أســـرعوا بالفرار – دون فتح باب الغرفة – دخـــل صـــلاح يـــسترشد بصراخها .

– سلمى .. ماذا حدث ..؟

– جو[149] .. وربي جو ياصلاح صرخت في وجـــوههم خافوا وهربوا.. ياريتني تحملت .

يجرى صلاح نحو آية .. يمعن النظر .. يصرخ ...

تعالي .. سلمى انظري ..!

تلملم دموعها .. تلتفت نحو آية التي تنام كالملائكة تتنفس بطريقة أكثر راحة فقد زالت الحشرجة من صـــوت تنفـــسها قامت بنزع ملابسها وجدت جلدها ناعماً زالـــت الـــشقوق الغائرة بجسدها كأن أرضه الجدباء ارتوت فظلا يبكيان وسجدا لله شكراً .

---

[149] حضروا

حملتها فوق صدرها غمرتها بفيض دموعهـــا ، احتـــضنهما صلاح .

الليل والنهار يدوران فى فلكهما يُسبحان .. نظرات الأسى تغادر عين سلمى وهى لا تعلم هل تصالحها الحياة أم ستقدمها لتضحية جديدة .؟! تناوش القدر بمصابيح الحمد والسجود .

الشهور تخاصم بعضها والسنوات تفر من بين يديها موليـــة الأدبار وقد نسيت مامرت به من آلام ..!!

بين الفينة والأخرى تطفوا قطع فلين عشقها القـــديم علـــى سطح مشاعرها .. فتبتلع أيامها بغصة فراق ، غـــرف نبـــضها المتهالكة لا تسكنها سوى غربان فراقهم وبعدهم. تمر الأيـــام سريعة وهى تقاسي من زوج لا يعبأ بشيء .

ازدادت مجاديف الحياة - آية وأبنتان وولدان - القناديـــل الخمس التي تنير حياتها ، دون أن تشعر تبدلت شخصيتها.!

صارت هى الأم و الأب تُوجت رغماً عنها حاكمة علـــى عرش مترلها بدلاً من صلاح الذي فضل مكانه بين الرعية .!

صارت تحكم الجميع بالقوة والحزم ..تعلمت القيادة رغمـــا عنها لترتع فيها كما تشاء..!

بلغت آية السادسة عشرة .. هى الوجه الآخر لعملة الجمال ..سمراء ناطقة الملامح عيناها لها بريق لا يختفى .. سكنت بين

جفنيها ضحكة كأنهما شفتان ..شعرها ليل يسيل كالزيت فوق ظهرها .

– أمي ..

– خير .. يا آية ..؟

– ماذا سنأكل اليوم ..؟

– إيش رايك نأكل سمك خير من الخضار.؟ روحي للسوق وجيبي سمك طازه .. لاتتوخري.

تذهب آية إلى السوق .. كل من يقابلها يلقي عليها التحية الجميع يحبها لأنها تمشي على الأرض هونا ولاتقول إلا سلاماً .

اشترت السمك من بائعة غليظة القول .

دخلت البيت ....

– آية جيبي السمك .

وما أن تضعه إلا وتصرخ ...

السمك بايظ .. أحنا حنرمي قروشنا في الشارع لحد إمتى تبقي خايبة يضحكوا عليكي البياعين .؟ فتهم بضربها .

يدخل صلاح ليوقف قطار غضبها حتى لا يدهس آية التي ترتجف خوفاً تقول:

– لم أجد غيرها تبيع السمك .

- رديه[150] .. قوليلها أمي بتقولك كُليه أنتِ .

تخرج آية تسأل نفسها كيف ستعود بـه لتلـك المـرأة الغليظة..؟

- لا نريد السمك أرجوك اعيديه واعطيني نقودي .

تنظر لآية شزراً ...

- السمك الذي أبيعه لا أعيده مرة أخرى . اذهبي يا بنت.

- أمي ستغضب .

تنهرها البائعة .. تلقي بالسمك بوجهها تبكـي آيـة خجلاً بعدما تجمع المارة ..!

يمر سعيد البدوي .. يعرف آية يهرع إليها وهى تبكي .

-إيش فيكي ..؟ ليش تبكي ..؟

تسرد له الحكاية بنهاية كل عبارة تضع نقطة دمع .!

- إيش تقولي ..؟ رمتْ السمك فى وجهك .

تبرز عروقه مستنفرة غضباً من نهـر سـاعديه .. يقـذف السمك بوجهها ويلقي بالعربة فوقها ، يسبها ويلعنها ويتوعدها بألا يراها بالسوق مرة أخرى وإلا سيقتلها ..!!

---

[150] أعيديه

تستغيث البائعة .. تنظر إليها آية .

تحدث نفسها ....

سبحان الله ألم تكوني منذ لحظات جبارة متسلطة ..!؟

الأثنتان تبكيان ؛ المرأة على مكانها ورزقها وآية على هـــذا الذي فزع لنجدتها وجلب لها النقود

يقول لها :

- مانريدش[151] نراعيكي تبكي مرة أخرى .. أحنـــا هنـــا أصحاب مطرح هم بيجوا يتطفلوا علينـــا ، اللـــي يزعلـــك نابي[152] عليّ قولي ياسيدي سعيد بس .. يالا رُوحي رَوّحي وماتنسيش تسلمي على أمك .

تعود مسرعة خشية من أمها ....

تسرد لأمها ماحدث .. تبتسم ســـلمى فخـــراً بقريبـــها البدوي..!

-كنه[153] مايفزعلك[154] .. قريبي ويفزع للحمه ودمه .!

وتغني سلمى ......

---

[151] لا أريد
[152] ناديني
[153] لماذا
[154] يهرع لنجدتك

(سلم رجالك ياعين .. تقول حواجب مقرونين)[155]

يجري الألم العابث - بصدر سلمى - تهـرع إلى الأطبـاء لتظهر صورة لشبح المرض ماء يتسلل خلسة فيغـرق أحاديـد رئتيها ويغمرها .

تم حجزها كمجرم أقترف ذنباً لا يغتفر حينمـا فتحـت خزائن المرض وسرقته لجسدها .

تسلم مفاتيح مدينتها لابنتها فتتحمل آية حمولـة سـيارة الأمومة كاملة دونما إعتراض ..

تهجر مدرستها فتصبح فجأة أماً وزوجة وممرضة .. تنتـهي من البيت وإعداد الطعام ثم تهرع لأمها بالمستشفى في دائـرة لا تنتهي إلا عندما تغمض الدنيا عيونها اسـتعدادً إلى النعـاس .. أعضاؤها تتصارع بين الراحة والاستعداد ليوم أمومي جديد .!

في المستشفى ....

كونت صداقات مـع الممرضـات ، المريـضات كانـت تساعدهن في الطعام ، الذهاب لدورة المياه أحبتهن وبادلنـها الحب .

عندما تضع رأسها فوق وسادتها تصبح وسـادتها شاشـة مضيئة ترى فيها مارأته بيومها من إرهاق وتتساءل ....

---

[155] فليحرس الله رجالنا .. كانهم حواجب متصلة

عبء شديد يتنكر تحت اسم الأمومة .. الدنيا تتكوم فوق رأسها كلغز للشقاء وعليها وحدها حله وهى تصارع أيامهـــا لينعم الجميع .. أتعجب من تلك السعادة الغريبة - الأمومة - التي تطفوا فوق بحر من الشقاء .!

تنهض من فراشها .. تذهب لمرآتها .. تحدثها :

كم أنت جميلة يا آية .. لكنك وحيـــدة تـــتحملين فـــوق طاقتك لا تملكين حتى حق الصراخ ..قنبلة موقوتة حزينـــة لم تنفجر زرعت داخلك تنتظر يد أحدهم يترع فتيلها لعل الحزن ينساب منها ..متى تأتي يامن تجعل جفوني لا تعـــرف طعـــم النوم..؟ أعطيك عمري ولا أبخل أدفع لك روحـــي عـــشقا ، أجمع لك البحر وأمده بين حاجبيك فتصبح أيامك بين يـــديّ زهورًا يانعة أغرسها بحديقة عمري.

فتضحك المرآة وتشاركها الـــضحك .. تـــذهب لتكمـــل حلمها الوردي فوق سحابات وسادتها فيحتال عليهـــا النـــوم ويسرق يقظتها .

وجدته كظلها.. ظلّ نبتت له أرجل وعين وقلب ..! شاب ممشوق القوام عيناه قطعتان سُرقتا من السماء وجهه كقـــوس قزح يمنحها كل الوان الحب.!

كحارس خاص يتبعها.. لكنه صامتاً كتمثالاً متحركـــاً .. عند خروجها تتلفت يميناً ويساراً وهى على يقين أن نظراتهـــا

ستتصيد وجهه من بين وجوه متلاطمة بالشارع لكن صمته زاد شوقها إليه.

تذهب لأمها .. وعند خروجها تجده واقفاً ينتظرها يسير خلفها حتى تصل إلى بيتها فيرحل بهدوء ويعود بموعد ذهابها باليوم التالي.

تأكلها الحيرة ، تسأل نفسها ...

- لماذا لا يتحدث ..؟ ألا يجد ما يقوله ..؟ أم أنه لا يحبني..؟ وإن كان لا يحبني لماذا يتبعني ..؟

كانت متيقنة أنه لن يصمد طويلاً فيوماً سيمتلئ جوفه بالعشق ويفيض بكلمة أحبك!

وهي في طريقها لغرفة أمها...

كم تمنيت أن تشفى أمي لتحمل عني هذا العناء الثقيل ، لكن الآن وجودها هنا يمنحني بعضاً من السعادة .. لكن لترحل السعادة وتعود أمي لنا .!

- كيف حالك أمي ..؟

- بخير .. كيف حالك وكيف بوكي وخوتك ..؟

- بخير ، ماذا قال الأطباء ..؟

- إمغير[156] يصرفوا العلاج وقالوا نين[157] تنشف المية على الرئة ، آية إيش فيكي أشوفك متلخبطة ..؟!

---

[156] فقط

يجف لعابها من رياح الخوف الساخنة حتى لا تــرى أمهــا حالها فتتعجل بالانصراف.

تتمتم سلمى ..

(إباري طبيب الياس ، مديت دراعي وخديتهم)١٥٨

وتدعوا دوما ...

- يارب من القوة للهوه .. يارب من القوة للهوه .١٥٩

على غير العادة ...

تناديها جارة أمها بالعنبر ....

- مرحباً خالتي .. كيف حالك ..؟

- والله يا ابنتي حالتي لا تسعد عدوا ولاحبيبا ..

- خيراً خالتي ..؟

- ابنتي سعاد لم تزرني منذ ثلاثة أيام وأنا قلقــة عليهــا لا أدري ماالذي أخرها عــني .؟ خائفــة تكــون مريــضة ..
- أعطني عنوانها سأذهب لأطمئن عليها .

أخذت عنوان الأم الملهوفة - تسير وخلفها نور - وجدها فجأة تغيرخط سيرها .. استوقفها.

---

١٥١ حتّى
١٥٨ حقن الياس مديت يدي واخذتهم منه
١٥٩ يارب من القوة إلى القبر

- آية إلى أين ..؟ ألن تعودي إلى البيت .؟

تتلعثم آية التي سرت نبضات صوته في وجدانها كفروع من قناديل تنطفيء وتنير بنفس اللحظة

قالت :

- خدمة لصديقة أمي بالمستشفى لبيت أبنتها

- أتدخلين بيوتاً لا تعرفين أصحابها ..؟

- الست مريضة وقلقة على ابنتها .

تخبرها سعاد بمرض زوجها وأنه كالطفل الصغير لا يطيق بعدها وهو مريض ، وتعدها بأن تذهب غداً لأمها لتطفيء نيران قلقها .

خرجت ونور يسير بجوارها .. لأول مرة ترى الأضواء تراقص سعيدة فوق الإسفلت الذي أصبح كلج يتماوج بالفرح .. الأشجار تغني بحفيفها والهواء يدغدغ أوتار أغصانها بأنامله ..!

لكنه ظل صامتاً ؛ كأن الكلام باهظ الثمن يباع بعدد الحروف فصمته زاد لهيب النيران التي تشتعل بزوايا روحها .

قبل هذا اليوم كانت تمل السير فتعترض أقدامها من وهنها لكن اليوم قرُب البيت فجأة كأنه يدنو مع سبق الإصرار لينهي

هذا اللقاء الجميل .. نعم لقاء جميل برغم توقيع الصمت في ذيل خطاب لقائهما الأول .!

ترتفع قدماها من فوق الأرض بجناحي السعادة .. تدفعها رياح عشقها إلى أبعد ماكانت تتخيله أغصان قلبها .

تعود لتجد أخيها الصغير-كقلبها - الأثنان حرارتهما مرتفعة أرسلت لأبيها بالمقهى لكنه لم يحضر فقط أرسل إليها نقوداً لتذهب به إلى الطبيب .

حملت أخاها ومرضه والحزن يرافقهما .

تحدث نفسها..

وهي تستنشق رائحة الحرارة التي تندلع من بوتقة جسد أخيها :

أكنت ألوم أمي على معاملتها له ..؟ لم أكن أدري أنه السبب .! تركها وحدها بعدما تخلى عن دوره كأب ؛ رحل عن عالمنا ليسكن عالم الورق وجد نفسه بين نقوشها وأرقامها ليس هذا فحسب بل وجد البنت والولد والشايب عائلته الجديدة التي تجعله الرابح دوماً !!

يخبرها الطبيب بعمل كمادات مثلجة لأخيها لكنه لم يخبرها بأنها تحتاج كمادات عشق مثلجة حتى تتخلص هي الأخرى من حُمى الحب الشديدة التي ضربت أطراف وجدانها واجتاحت مشاعرها .!

العدوى تصيب الساعات وهى تلتهب من جــراء إنتقــال الحرارة إليها بكمادات ساخنة من جراء انتظار أبيها وعودتــه متأخرًا ..إلى أن نام أخوها وهو يهذي بألعابه التي يحلم بها و لم يرها يوماً.

أبي هل أجهز لك العشاء ..؟

كلا أكلت بالخارج .

انتظرت أن يسأل عن أخيها المريض .. باتت تسترق السمع وهو بغرفته حتى سمعته يغط في نوم عميق ..

سالت دموعها ...

ألهذا الحد أنتَ ..؟ سامحيني يا أمي لأني ظلمتك تركــك تجدفين بالمجدافين معاً وهو يستلقي على السطح مسترخياً بــل وينتظر حصته من صيدك الثمين ..!

لكنك وبرغم هذا تظل أبي الذي أحبه .. بلحظــة يتبــدى وجه نور ليرتشف الدمعات من فوق وجنتيها ليحيل كــابوس واقعها إلى حلم جميل .

تذهب لأمها ..

يسير نور بجوارها وهو كتمثال أخــرس بنــصب ميــدان روحها.. ظلت تدور حول التمثال سبعة أشواط فلم ينطــق حتى فقدت الأمل فيه .!

خرجت الأم من المستشفى بعدما جفت المياه مــن رئتــها وتبخر معها حلم رؤية نور ولقائه .

الفصل الخامس

يوم فراقك حِيه

علىَ ..

دموع تمشي ودموع تجي



تعود المعاناة تتسلق جدران بيتهم تختال بعزة وفخر بعـــودة الأم بسوط ديكتاتوريتها وجبروتها .. يتحدث الأبنـــاء همـــساً خشية أن تـــسمع شـــجارهم فيفـــضون بكـــارة المـــشاجرة باستسلامهم جميعاً.

تسير الحياة فوق بحر متلاطم بين مد الأب وجزر الأم حرب باردة ليست معلنة وبلا نيران تلفح البيت بل أن هناك حـــرارة تسطلي يشعرون بها ولا يرونها ..!

يلقي الأب في غرة كل شهر حـــصيلة أيامـــه الثلاثـــون ، لايسألها ولا يعنيه شيئاً فقط يأكل ما يوضع أمامـــه بـــلا أدنى اعتراض.

تتحسس سلمى الجنيهات الخشنة البخيلة تأكـــل الحـــسرة أناملها وهي تضع في كل فم مفتوح جـــزء منـــها -المأكـــل والإيجار والكهرباء والمياه - ومازالت أناملها تشتاق لبعـــضها لكنها نفدت و لم تنفد طلباتهم فالملبس لا ميزانية له وإن مرضوا فيشفيهم الله بقدرته .!

تجتهد وهي تقتطع من كل رغيف قطعة ومن كـــل غرفـــة بعض ضوؤها ومن الماء نفحات من قطراتها لتحـــضر ماكينـــة حياكة وببعض ذكرى الحياكة التي ترسوا على مخليتها تحـــضر أثواباً تعاني الترك و الإهمال فتعيد صياغتها من جديد لأبنائها .. هكذا ظل أبنائها يرتدون ثياب بعضهم بعدما تعيد إليها بعض

رونقها الراحل بعمليات تجميلية في الخفاء حتى أن الجيران كانوا يدهشون من أين لهم بهذه الثياب الجديدة ..!؟

لكن آية البنت الكبرى حظيت باهتمام أمها دون إخوتها فلأجلها لم تكن تربط حزامها فقط بل كانت تخنق به خاصرة أيامها ؛ تشتري أقمشة جديدة لها حتى صارت أجمل فتيات الحيّ وأكثرهم أناقة .

برغم غيرة الفتيات منها إلى أن طيبتها ورقتها كانت تُسَخِّر لها المشاعر فتعشقها صويحباتها .

لكن - صفاء - تلك التي تحقد عليها فكانت تتابعها وترصدها وسكين الغيرة تمزق حبال الحب التي تمدها آية بينهما.. فهي عصبية سريعة الغضب تحاول أن تقلد آية بطيبتها وحنوها لكنها سرعان ما ماتعود لنفسها فتهاجم الجميع كثور هائج .!!

أحياناً تنسى سلمى نفسها وتخلع معطف قسوتها وتداعب أبنائها لكنها سرعان ما ترتديه خشية فقدها لهيبتها .

يعيشون بشقة متواضعة لا تبتعد عن الأرض حتى إن كل من يمر بالشارع يسكنهم لحظات .

تزداد الأيام قسوة لتزداد الهوة بين سلمى وصلاح حتى أصبحا كالشمس والقمر لا يلتقيان!

آية وضلوعها الصغيرة التي تحمل بين جنباتها – قلــب أم – تداوي به جراح القسوة عن إخوانها وأبيها ؛لتوقــف نزيــف الاستبداد بضمادات عطفها أثناء غياب أمها .

تعود سلمى من زيارة إحدى أقاربها سيراً على الأقدام لتوفر ثمن المواصلات تنظر حولها تشكو إلى الأشــجار والأرصــفة والدروب والعمارات قلة حيلتها .

تحدث نفسها .....

هل ما أفعله بأولادي صواب ..؟ يتحدث جــيراني عــن معاملتي القاسية لأبنائي .. كيف أكون أماً حنوناً ولا يوجــد أب يمسك بزمام الأمور ..؟ الدنيا أجبرتني على هذا فــالأولاد يحتاجون إلى القسوة الممزوجة بالرحمة وبأبيهم زاد عدد أولادي واحداً ..!

نشأتُ في بيت فيه أب صلب لا يستطيع أحداً أن يطرقه .. يرهبنا صوته ، أمي كانت تحت قدميه تلبي له طلباته حتى الــتي لم يطلبها ! كم كنت أتمنى زوجاً مثله لكن تأتي البحار بمــا لا تشتهي الشواطئ ..! نبتة قوتي كان يرويها صلاح بضعفه حتى توحشت وتعملقت .

تمنيت زوجاً ألقي روحي على كتفيه كالمعطف.. أأمن مــن غدر الزمان بساتر من قوته وصموده .. لكن هيهات تــرك لي صلاح قيادة سيارة عمرنا وقبل أن أدهس أحــداً دهــسته.!

تخبطتُ في بادئ الأمر مرغمة لكن أعجبتني اللعبة فصرت أرتع كما أشاء .

تقف بجوارها سيارة صوت مكابحها تصطدم بسيارة فكرها التي تنطلق بعقلها .

– مرحبا .. خالتي أم آية .

– مرحبتين فتحي .

– إلى أين خالتي ..؟

– راجعة البيت .. كنت نزور قريبتي .

– تفضلي أقلك إلى البيت .

– شكراً .. إنريد نتمشى شوى .

– كلا .. أركبي حتى تباركي سيارتي الجديدة .

تومض عين سلمى ؛ كانت تظن أن السيارة لزبون .

– بسم الله ما شاء الله .. هدي[١٦٠] سيارتك ..؟!

– نعم .. أشتريتها أمس ، أنت أول من يستقلها .

– ربي يجعلها قدم السعد عليك ويكفيك شرها لسه بتشتغل عند الأسطى سيد ..؟

---

[١٦٠] هذه

- كلا ..ابتعت ورشة باسمي وأصبح الخير كثيراً والحمد لله وباقي العروس .

محدثة نفسها .....

لماذا لم أركَ من قبل ..؟ أنت نعم الزوج لآية ليتها لا تكرر غلطتي وتضيع سنوات عمرها في حلبة مصارعة لثـــور الفقـــر الذي لا يموت برغم دفن كل سهام صبري وتجلدي واحتمـــالي بجسده لينتصر هو بالضربة القاضية.

- انظري يا خالتي ..هذه ورشتي وهؤلاء غلماني .

تتقافز قطرات سعادتها وهي ترى آية زوجة له .

تترجل من السيارة أمام منزلها يسيطر عليها حلم زواج آيـــة من فتحي .

تبحث آية بكل الوجوه عن ملامحه .. أظلمت الدنيا بغياب نورها ..

أين أنتَ ..؟ أى الدروب تسرق خطواتك وتلتـــهمها..؟ ليتني أزرع فسائل وجودك بروضة عمري.

- آية .

- هه .. نعم يا أمي .

- تعرفي فتحي ..؟

- فتحي من ..؟ جارنا الميكانيكي .؟

- نعم .

- أف . لا أحبه فهو يتعقبني وبكل مكان أراه وكأنه هواء خانق لا يبرح دنيتي .

- إيش يمشي وراك ..؟

- نعم .. مغرور فرح بنفسه .

- ليش ما يفرح يامينه[١٦١] ؛ هو الوحيد اللي يملك جزمة في مملكة الحافين جاب سيارة تقول إيش[١٦٢] وجابني لحد البيت. لماذا ركبتي معه يا أمي ..؟

- وش فيها[١٦٣] .. رحمني من المشي يا ريت لو يتقدملك .

- كلا ..لا أحبه ولا أطيق النظر لوجهه ..!

تستاء سلمى من حديث آية فقد قطعت أملها في الفوز بمن يلقي إليهم بطوافة رخاء في نهر فقرهم .

- أبوكِ جا[١٦٤] من القهوة ..؟

- لم يأتِ .

بقهر وغيظ تنظر لآية وتدخل غرفتها تحدث نفسها .....

---

[١٦١] حبيبتي

[١٦٢] عبارة إعجاب

[١٦٣] ماذا فيها

[١٦٤] حضر

لو ما كان يعجبك فتحي من اللي حيعجبك يا بنت عمري.. هه ؟ أكيد فيه حدن هى غاوية فيه ..!!

وضعت سلمى ابنتها تحت الميكروسكوب ترصد حركاتها وسكناتها لفك شفرات رفضها لفتحي.

- شخبارك ياسلمى .؟ وكيف العواويل[١٦٥] ..؟

- الحمد لله إيش أخبارك يا زاهية ..؟

- بخير ياخايتي .. سلمى جيت نعزمك على فرح سَلفي[١٦٦] .

- ألف مبروك بازاهية وين الفرح ..؟

- حتجي ليلة الحنا في بيت العريس وفي الصبح تجي معانا وحنا نصمل[١٦٧] العروس لبيتنا إيش رايك ..؟

- يا ريت يازاهية وحشني النجع وهلنا[١٦٨] هناك .

- يالا توا بنعدي[١٦٩] نستناك يوم الحنة وعقبال آية .

- تسلمين . إن شاء الله حنجيب آية ونجي[١٧٠] .

---

[١٦٥] الأولاد
[١٦٦] أخو زوجي
[١٦٧] نذهب بها
[١٦٨] أهلنا
[١٦٩] سأذهب الآن
[١٧٠] نحضر

بمشاعر سلمى تقاد - أضواء الماضي- فتتذكر ....

أفرع النور التي ملأت نجعهم وجعلت ليله قطعة من النهار ما عدا قلبها الذي كف بصره فلم يعرف للضوء طريق ..

(يوم فراقك حيه عليّ .. دمعة تمشي ودموع تجي)

حميد يبحث عنه أصدقائه ليستحم لليلة زفافه التي كانت تتراقص فيها نظرات الجميع عداه شعر بلحظة أنه يزف لقبره لا لعروسه .

بعدما أضنى البحث أصدقاؤه وجدوه مستلقياً يحتضن بعض أعواد الحطب وقد كادت تحرقها النار التي تستطلي داخله فجعل من الدمع غطاء لقلبه ووجهه ومشاعره .

نهض معهم كمريض لم يجدوا لمرضه دواء وهم يحاولون اجتثاث الحزن من قلبه ومنهم من ينصحه بأن مايفعله لايصح خصوصاً أن حماه شيخ القبيلة .

(غلا درته مادراه والي .. لكن ضروني عقالي)

يطلب منهم طلباً أخيراً هو أن يمر من أمام بيتها لآخر مرة فوافقوا .

يسير أمام بيت سلمى وكأنه يلقي النظرة الأخيرة على جثمان قلبه المسجى عندها فإما أن يحيا معها أو يدفن ولاتسكنه غيرها .

يبكي وبحشرجه تكاد تشنق حروفه بأحباله الصوتية يقول :

(العمر موش كله عزم .. إيجن أوقات نرموا عالبكا)[١٧١]

سلمى المستلقية بين حياة يحياها الآخرون ولا تعيشها ؛ فقد فقدت عمرها اليوم وماتعيشه الآن ماهو إلا دنيا لا تعرف كيف تحصي أيامها تتذكر كم رقص أمامها الشيطان رقصاته الجهنمية يجمل لها - الانتحار - ويقنعها بأنه السبيل الوحيد لعدم رحيل حميد عنها.. يوسوس لها : ما أهمية الحياة لو لم يكن معها.؟

تفيق وتنفض ذكرياتها من بين يديها حتى لا تراها آية فتنهار أمامها مشاعرها الوهنة .

(حاسبوه قبل يموت ، العقل حاسباته دنيته)[١٧٢]

وبمحاولة فاشلة للخروج من خضم الماضي الحزين جمعت أشلائها التي بعثرها الماضي لتقول :

- آية جاتنا اليوم خالتك زاهية تعزمنا على فرح سلفها وش رايك تجي معاي ..؟

- ياليت يا أمي .

---

[١٧١] لانمتلك القوة طوال العمر أحيانا نحتاج للبكاء

[١٧٢] تعذب قبل موته العقل حاسبته دنيته

- خلاص جهزي نفسك بكرة نعدي لهم عقبالك يامينة.

ليلة الحناء ببيت العريس ..

أهل العريس مشغولون بالفرح الرجال بالخارج يستقبلون المهنئين وسرادق كبير له أكثر من أسبوع يقف شامخاً ، بجواره سرادقاً أصغر به الطهاة يذبحون البقر والخراف وتقدم ولائم كبيرة لكل من يأتي للتهنئة وبعد الأكل.

يخرجون إلى السرادق الكبير ينتظرون المطربين والراقصة التي ينبغي أن ترتدي مايفصح عن الكثير من طلاسم جسدها لتسكنها نظراتهم النهمة وتترنح فوق معالمها تكاد تخرج عيونهم من محاجرها وقد تشنجت أجسادهم من حالات الشهوة الجماعية التي عاشوها بخيالهم مع الراقصة .!!

تدور فوق الموائد كل أنواع المنبهات وتنطلق الأدخنة مترنحة حتى إن السماء تترنح ثملة فوقهم.

تدخل سلمى بيت حماة أختها تتأبط ذراع آية فتلتهمها عيون الرجال بتلك النظرات المخدرة النهمة التي تندفع نحو سلمى تسألها سؤالاً أخرس:هل ابنتها مرتبطة .؟

ترى سلمى نظراتهم وتقرأها جيدا فتحتضن آية أكثر ؛ خوفاً عليها منهم فهي تعرفهم ؛هم يعشقون المرأة حد الموت ويلهثون خلفها .

تقابلها أختها مبتسمة سعيدة فيقوم الجميع لتحيـــة ســـلمى لتقبيلها وتقبيل آية التي كانت مدهوشة من مقابلتـــهن ومـــن حميميتهن واحتفائهن بها وأمها .

تلتف آية حولها تسجل ماترى .....

صواني العشاء التي تخرج من الداخل توضع أمـــام النـــساء اللاتي يلتففن حول الصينية لتناول العشاء وكم الطعام بـــداخل الصواني وعدد الأصناف وهكذا أنقسم السرادق إلى حلقـــات نسائية ومركز كل حلقة صينية ملغومة بالعديد من الأطعمـــة الشهية .

وضعت أمام سلمى وآية صينية وقد كان حظهمـــا أوفـــر فأختها التي جهزت تلك الصينية بنفسها تقدمت سلمى وآيـــة تأكلان على استحياء .

النساء يرتدين الفساتين البراقة فصرن يومضن كأنهن نجمات هبطت على الأرض والحناء موشومة بأيديهن وأرجلـــهن ولا فرق بين امرأة وفتاة وطفلة فالحناء للجميع وهذا الوشاح الرقيق الأسود الذي يضعهن جميعاً فوق وجوههن إذا دخل علـــيهن أحد الرجال فهن يتوهمن أنهن قد تسترن لكن الوشاح لايخفـــي سوى سذاجتهن فيضحك الرجال وهم يروا النساء يـــسبحلقن يعتقدن أن نظراتهن المخلوطة بفضول لايراها الرجال .

قامت النساء بعد الأكل يحملن الصواني ليجلسن مرة أخرى بحلقة أكبر بعض النساء يجلسن لتحضير الشاي (شاهي بالدور) صينية فيها براد وكبايات صغيرة والشاي والنعناع والبـــابور.. تصب أول دور شاي ثقيل وتوزعه على النـــساء ثم دور تـــاني شاي خفيف (مذّكر) وتبدأ غيرها بعمل شاي وهكذا ..

وبعد الشاى تمسك إحداهن الطبلة ويبـــدأن في الإحتفـــال بالعرس .

كل الموجودات يصفقن على أغنياتهن ،كل واحدة تقـــدم وصلة رقص فالكبيرة مثل الصغيرة لا يخجلن خـــصوصاً أنهـــن جميعا نساء .

تتقدم امرأة كبيرة بالسن لترقص فيغنين لها ..

(إنعنك ماتموتي ياروحي .. نين نتم عقاب فروحي)[173]

والجميع يصفق والطبلة أيضا تدور من يد لأخرى ..قامت زوجة لم تنجب لترقص فكانت أغنيتها

(ياللي وسطك وسط غزيل .. إنعنا يلعب فيه عوّيل)[174]

وقامت سلمى لترقص فقالوا لها .

(إهزي يامو عيون السود ..إنعنا في آية مردود)[175]

---

[173] يارب لا أموت حتى أكمل أفراحي كلها
[174] ياصاحبة خصر الغزال يارب تحملين بطفل
[175] أرقصي ياصاحبة العيون السوداء أن شاء الله في ابنتك نرده

وقد رسمن لكل من ترقص أغنية وأمنية تتمناها هي فتــأتي خالة آية تجذبها لترقص تنظر آية لأمها فتمنحها الموافقة بإيمــاءة من رأسها .

(بو قميص مربعات ..ناخده ونغيظ البنات)

(هي عالية وأحنا نعلوها.. في سابع دور نحطوها)

تجلس آية فتقبلها النساء قبل جلوسها فرحاً بها وبجمالها .

تتجول عين سلمى على وجوه النساء تتــذكر ملامحهــن فتتعرف عليهن الواحدة تلو الأخرى لتقف نظراتها عند إشارة حمراء أضيئت فجأة من – وجه طفل – عرفته مــن ملامحــه واستطاعت من خلاله أن تتعرف على الأرض التي أزهرت هذا البرعم .

الطفل يجلس على قدم أمه يرتوي من صدرها ..تعرف هذا الوجه الذي دون أن يدري اغتصب منها حياتها فقــد حَكَــمَ عليها بالموت دون أن يعرفها فجأة تنادي المرأة على طفلة تلهو: سلمى .. سلمى .

تفيق سلمى مدهوشة وهي تحاول أن تجيبها لتقتل ثباتها طفلة صغيرة جرت نحو المرأة تقول :

– نعم يُمي .

لينفجر لغم العشق المدفون بأرض مشاعرها من جراء ســير الطفلة فوقه وبدأت أشلاء مشاعرها تــترف فتــسرع أختــها

وتأخذها إلى الداخل حتى لا يرى الناس ماحاولـــت الـــسنين مداراته .

مازلت النساء يغنين وآية لم تشم رائحة الانفجـــار الـــذي حدث بجوارها ولا لمحت أشلاء أمها التي تناثرت منذ لحظـــات لتحتضن سلمى أختها باكية تقول :

- ياه ياسلمى بعد كل هالعمر ولسه تذكري حميد ؟

سلمى باكية تنجد دموعها بيدها قبل أن تسقط من سفوح عينيها

- عمري مانسيته.

(سبحانه اللي هانوا بعد ولعتهم .. وعيني بعد تـــسكيبها مانسيتهم)[١٧٦]

- يانا من غلاك[١٧٧] ، تصدقين حتى حميد مانساكي كـــل مارعاني[١٧٨] نشدني[١٧٩] عنك وعن أحوالك

- هو بره مع الرجالة ..؟

- إيوة .. ليش ..لا تكوني إنجنيتي وإتريدي تراعيه .

- ياريت يازاهية بس من بعيد .

---

[١٧٦] سبحان الله من هانوا بعد نار حبهم . وعيني بعد بكانها مانسيتهم
[١٧٧] حبك
[١٧٨] رآني
[١٧٩] سألني

(غلا ديرته في عز شبابي .. مازالت ناره في جنابي)

تشتاق سلمى رؤيته كما يشتاق ظمأ الصيف إلى المطر .

- طيب تعالي شوفيه من شباك داري بس مـــاتخليش حـــد يحجك[١٨٠] .

تفتح النافذة وقلبها الظامىء لبعض همسه .

تفتش نظراتها بين الرجال بحثاً عنه لتجـــده وقـــد تغـــيرت ملامحه.. الشيب كسا رأسه لكن عينيه كما همـــا لم يعـــرف الشيب لها طريقاً و لم تحرم نظراته وكأنها بها يوم كانـــت معـــه هناك .

ليخرج قلبها من أسر ضلوعها ويذهب إليهما يهيم فـــوق وجهه يشم رائحته ويتحسس ملامحه التي يفتقدها ويسقط عند صدره يدق على أخيه ؛ ليته يسمعه فيناجيه كما كان يناجيـــه قديماً

فيأتي ابنه ويحمله ليعود قلبها لصدرها حزيناً فتقول :

(ليش يا أصحاب الصوب .. تديروا خطى نين توحلوا)[١٨١]

تعْلق بنظراتها الأقمشة الملونة للسرادق هذا القماش الذي — احتار - فمرة يجمع بين كفيه ابتسامات أفراح ومـــرة دمـــو ع

---

[١٨٠] يراك

[١٨١] لماذا يا أصحاب الحب تفعلون السيئة حتى تغرقوا فيها

حزن .. لكنه الآن لعب دورين معاً فرح أهل العرس وحــزن سلمى وكل منه له مهنئوه ومعزوه .

تغلق النافذة وتترك نظرها هناك لتشبع من وجهه وتأتيهـا بمخزون من ملامحه يكفيها سنواتها العجاف.

تبكي سلمى وهي تحتضن أختها التي تبكي معها يدهـشها هذا العشق الذي لايعرف موتاً

قالت أختها وهي تعانقها :

(بكيتي بكيت معاك .. تبكي على إيش مابيت ننشدك)[١٨٢]

تمسح سلمى أمطار وجع و قد تركت قلبها منتـصباً عنـد النافذة وعقلها يسكن ماضي عشقها فكـأن جـسدها مجـرد غلاف لكتاب حزن ينعي عمرها كله.

مازالت الطبلة تدق بأغنيات بدوية لا تسمعها سـلمى لأن هناك طبولاً بقلبها تدق أعلى وأعلى ولايسمعها غيرها .

تصدح النساء و يصرخن من شدة الفرح

(مبروكين على هاللمه.. فرحانات خواته وأمه)

(يالعريس إمغير الليلة..وإللى يجيك إقطع له ديله)[١٨٣]

---

[١٨٢] بكيتِ فبكيت معك ولم اسألك عن سبب بكائك

[١٨٣] ياعريس فقط اليوم ومن يأتي لزيارتك أقطع قدمه

تظل الموسيقى البدوية تنبعث من سرادق الرجال أما بالبيت فتنام النساء وترحل من ترحل إلى بيتها وتظل سلمى شـــاهقة البصر تنظر لسقف الحجرة كأن النوم يعاندها يتراقص مراوغاً إياها ولا تستطيع الإمساك به .

تخرج ... والجميع نيام إلى .....

المكان الذي حفظ بين طيات ذاكرته لقاء العاشقان .. تمنت للحظة أنها دفنت هنا يومها و لم تبرح المكان ولا أنكتب عليها أن تحيا حياة لا تحبها و لم تتمنها يوماً .. شعرت أن الهواء تغـــير ليرتدي هواء الماضي الذي كان ينـــضح عـــشقاً .. انتحـــرت سنوات البُعد داخل عمرها فتعود سلمى تنتظر حميـــد وقـــد امتزج الشوق بالدماء.

(إشقينا من مرهون أيام .. غلا مـــادام .. تباعـــد جابنـــا الأقسام)[184]

فجأة يأتي شبحاً من بعيد يستحث الخطى تخيلت أنه يُقبـــل الثرى الذي امتزج بالدموع لينبت صباراً يئن بـــشوك الهجـــر والقطيعة .

– من هناك ..؟

---

[184] أرهقنا الحبيب المتزوج حبه لم يدم بعدما ابتعد اعاده النصيب

تختنق سلمى من الصوت الذي تخيلت أن تخرج منـــه أبجديـــة روحها وتستقي منه رضاب الحنين .

- نا ياخالي .

- من ..؟ وليش قاعدة في هالوقت لوحدك يابنيتي ..؟

- نا سلمى بنت الحاج شعيب الله يرحمه.

- الله يرحم الجميع .. دنيا ولا دايم الا وجـــه الله .. إيـــش إخبارك ياسلمى وكيف عواويلك .؟

- بخير ، الله يسلمك يا خالي .

- روحي ياسلمى الوقت متوخر واللرض[١٨٥] هنا فيها بلاوي واجدة[١٨٦] .

- حاضر ياخالي مروّحة .

- إيش اللي مسهرك لها الوقت هذا ياخالي .

- والله يابت أختي ماينام الليل إلا بو قلب خالي .

وأكمل ...

(الليل يفوت على المتهني ساعة .. طويل على اللي كـــاترات وجاعه)[١٨٧]

---

[١٨٥] الأرض

[١٨٦] كثيرة

[١٨٧] الليل يمر على الفرحان ساعة طويل على الذي يعاني الاوجاع

تعود سلمى أكثر وجعاً من قبل .. تشعر بجفاف أكثر من جفاف الصحراء وأشواك صبار تنتصب بحلق عمرها لن يرتوي ولو سُقيَ بسحابات الكون .

في الصباح تأتي العروس تجلس وسط النساء تائهة زائغة البصر كذبيحة تنتظر وقت إعدامها .

- أمي ألن نذهب .؟

- الساعة العريس يجي .. حتراعي[188] اللي عمرك ماحتراعيه مرة أخرى .!!

تتزوي آية بركن وحيدة تنتظر ما الذي سوف يحدث ....

نسمع نفير السيارات التي تزغرد فرحا بالزفاف وتصرخ البنات: العريس جا .. جانا العريس

أنظر إلى العروس فقد ذهب بريق عينيها وتبدلت نظراتها إلى نظرات رعب و أصبحت شبه باكية.

نهض بعض النساء و أمسكن بالعروس هن صاحبات أبدان ضخمة وعيون صارمة جذباها إلى مخدعهاو أغلقوا خلفها الباب بعد برهة دخل العريس.

بدأت تتعالى صرخات العروس .....

---

[188] سترين

النساء بالخارج يطلقن صيحات الفرح تعالــت أصــواقمن بقصد اغتيال صوت العروس.

شاهدت رجلان يقفان بعيداً ينتظران عرفت أفمــا أبــو العروس وأخوها.

عيوفمما متسمرة على الباب؛ ينظران بشغف ما يحدث .

الأخ يتحفز لعمل جنونى ،الأب يبتسم ابتسامة باهتــة لا لون لها .

النساء يغنين ويطلقن الزغاريد بأصوات مرتفعة .. استرقت السمع للأصوات التى تأتى من داخل الغرفة المغلقة على تلــك المسكينة التي تمسك بها نسوة بملامح رجال .

أسمع صرخات العروس تتعالى و تتعالى ، النساء بالــداخل ينهرنها.

يغطيه صوت غناء النساء بالخارج لكن صراخها كان يزاحم أصوات الفرح كأن الصراخ يولد من بطن ورحم الفرح .

بعدها فتح باب الغرفة....

خرجت النساء كما يخرج الأطباء من حجرة العمليات بعد إجراء جراحة ناجحة وعلى وجوههن ترتسم ملامح ســعادة بوهيمية فأرى دماء الذبيحة تتقاطر من سواعدهن المشمرة. كل

واحدة منهن تمسك بيدها قطعة قماش بيضاء لأول مـــرة أرى القماش يُجرح وينزف.!

دخلت عليها مع الجميع ..

مزقني هول ما رأيت وجدت مسخاً لعـــروس. اختلطـــت أصباغ وجهها لا تستطيع أن تفسر ملامحها بـــسهولة ؛ كـــأن عينيها صارتا تحت أنفها أو أن فمها صار فى جبهتها، شـــعرها تبعثر بطريقة عشوائية تبكى ألماً وفرحاً والنساء يهنئنها.

الفتيات الصغيرات لا تظهر عليهن أى انفعالات لا خـــوف ولا ألم.. سألتُ القريبة مني والمبتسمة بسعادة .

- ألا تخافين مما يحدث ..؟

- ليش نخاف ..؟ ياريتني نا اللي جوه بدل العروس .

ارتعد من جوابها .. تتمنى أن تكون مكان العروس .!

نظرتُ إلى العروس بشفقة فقد أُهدرت كرامتها ،لاحظت العروس نظراتى وشدة غرابتها لتشيح بوجهها بعيدًا خجلا مني.

خرجت من غرفة الذبح هربا لكني مازلت أرى قطرات دم العروس تتساقط لتغير لون فستانها الأبيض.

نعود لبيتنا وقد جمعت بذاكرتي مشاهد لن أنساها ماحييت.

على بُعد جدران متهالكة من بيت آية تتقافز حروف باردة فوق صفيح حقد ساخن .....

- لا أدري مالذي يعجبه بها ..؟ هل هـــي أجمـــل أو أرق مني..؟

- عمن تتحدثين ..؟

- فتحي .. يحبها ولا أدري السبب كلما قابلته حدثني عن حبها الذي يسكن قلبه بل وأكثر من هذا يطلب مني أن أخبرها بعشقه لها .. كيف أفعل هذا وأنا أهواه وأعشقه ..؟ أعرف أنها تحب نور وهو يحبها ألا يكفيها هل تريد قلوب كل الرجـــال حولها ..؟

- لكنها لا تحبه فما ذنبها ..؟

- تعجبه ويحبها.

- وما دخلها ياصفاء..؟ هى حتى لا ترد سلامه .

- (بغضب) عجيب .. ولماذا لا ترد سلامه ..؟ ماالذي لا يعجبها فيه ماذا ينقصه ..؟

- لكنه لا يعجبها ويعجبك أنتِ .

- ماذا تقصدين بحديثك هذا ..؟ إن ذوقـــي أقـــل مـــن ذوقها..؟ أو أني أجمع فضلاتها من الرجال التي يلقيهـــا الـــزمن فوق موائدها هل أنتِ معي أم معها ..؟ أخرجي أنت مملة .

تخرج صديقتها تهمس لنفسها ....

آه منك يا سليطة اللسان .. نعم آية أجمل منك ولن تصلي لها فأنتما كالسماء والأرض .. الكل يحبها ولتظلـــي هكـــذا تنهشك نار غيرتكِ منها إلى أن تقضي عليكِ.

صفاء التي قاربت على الموت حنقاً ..

والله يا آية لو لم تبتعدي عن طريق فتحي فلن تعرفي للبسمة شفاهاً سأخبر أملك بعشقك لنور ..!

على الطعام ....

يحاول صلاح أن يداعب سلمى ليسرق منــــها ابتــــسامة .. تتجهم في وجهه وتنهره فيضحك بلامبالاة .. يسأل أولاده عن أحوالهم وكأنه ضيف عندهم فهو لا يعرف بأى صف يدرسون ولا إلى أى مدرسة يذهبون .!

لا تخرج آية من المترل .. عندما يمر نور يقذفها بنظرة عشق ملتهبة ترشق صدرها فتذيب تلك القضبان إلي تحجزها أمهـــا بداخلها وكم تمنت لو هشمت تلك القضبان .

- آية عدي[١٨٩] لعمتك جيبي منها القماش .

- هه .. سأذهب فوراً.

- ما تمشيش بروحك[١٩٠] خدي سماح معك .

أصابتها خيبة أمل فقد كانت في شوق لأن تكون بمفردهـــا لينير بنوره حلكة غيابه عنها .

---

[١٨٩] اذهبي

[١٩٠] لاتذهبين وحدك

تتلفت يميناً ويساراً بحثاً عن نبضها الهارب مـــن حجـــرات قلبها .

– أبلة آية .. ماذا بك تتلفتين..؟

– هه .. لا شيء .

يدمي قلبها فلم تجد نوراً ليطبق ظلام غيابه على عنق دنيتها فتلدغها الشوارع التي أصبحت كالثعـــابين الـــسامة الملتويـــة المطعونة بلا موت بأعمدة الإنارة فتسير بلا هدف كأنها بلاد لا تعرفها حتى ضلت طريقها .

– أبلة آية .. عمتنا لا تسكن هنا .!



الفصل السادس

خليت

ياعزيز العقل بكاى ليل

والليل ماكمل



- نعم سنعود أدراجنا .

كأنها نسيت دنيتها فتموت قدميها لتنتظره علـــى أعتـــاب غيابه .

بدون أدنى مقدمات تشرق دنيتها بنوره الوضاء .. مصادفة أعادت الروح لجسدها المسجى بلحد حياتها فهاهي الجريحة تجد دواء العمر .. هو وحده القادر بممحاة وجوده محـــو الحـــزن والقسوة التي تراها على يد أمها من فـــوق ســـطور عمرهـــا الصغير.

نور يبتسم لها ..

لتتسمر بمكانها كأن قدميها فقدتا ذاكـــرة المـــشى لكنـــها شعرت أنها تجمع بساط الطريق من تحت قدميه ليأتيها سريعاً .

يقترب منها ينظر لوجهها يرى فيه ملامح قلبه ويعـــرف أن بمفردها وبيديها يمكنها أن تقتل خفافيش وحدته ..هاهو يروي بجداول الحنان المتدفق من عينيها أرضه العطشى وسنينه الجرداء

-آية .. كيف حالكِ ، أنتِ يا سماح .

-الحمد لله .. لكن تنقصني أشياء لا تعوضني عنها الدنيا وإن ملكتها .

-سماح خذي النقود وأذهبي لتشتري حلوى .

- شكراً عمي .

تنظر إليها آية بالموافقة .. تأخذ سماح النقود وتهرع إلى محل الحلوى .

- أين أنتِ ..؟ نوارس عشقي تشتاق لبحرك كم أفتقدك.؟

- أمي .. تمنعني من الخروج .

- ألا تشتاقين لرؤيتي مثلما أشتاق لرؤيتكِ ..؟ هل تعلمين أنني لا أبرح من أمام منزلكم إلا بعدما تطفئون الأضواء ، تظل عيني معلقة بنافذتكِ حتى تظلم وأطمئن أنكِ غفوت ، عندما أراك تصعدين السلم أُقبل جداره بل وأحسده أنه لامس يديكِ وشعر بحرارتهم .. منذ أعوام أسير خلفك وكأنه يكفيني أن تلمس قدماى الأرض التي وطاتها قدماك وأسأل أصدقائي أن كانوا رأوكِ فأن حدث يكون يوماً مظلماً أمزقه من دفتر عمري فقد ظهرت شمسه ورآها الجميع عداى .

- لماذا تفعل كل هذا ..؟

- أمازلتِ تسألين ..؟ ألا تشعرين بهذا الطوفان الذي يجتاح مشاعري بلا هوادة يجرف أمامه كل محاولاتي للثبات ..؟ فتموت على أعتاب عينيكِ قوتي وكياني .

- ما هذا الذي أسمعه..؟ أذني لا تحتمل.! كم كنت أتمنى أن تنطلق عنادل كلامك من أقفاص صمتها لكني لم أتخيل إنـــه إن تحدثتَ تثور عواصف العشق لتجتاح مشاعري اجتياحاً.

- أرجوك لا تأسري عواطفكِ بل أطلقي سراحها ؛أنتظرها بلهفة غائب لرؤية الأحباب.

- تشعر آية بأنفاسه الملتهبة تحمل بين جنباتها نيران الغـــرام التي ألهبت مشاعرها ليغيب الزمن وينمحي الوقت فيـــصمتان وتتحدث العيون بلغة جديـــدة لا حـــروف فيهـــا ولا أوراق تأسرها. تغلب بحروفه على من أثروا الدنيا بحـــديث الغـــرام ، فسمعت منه أعذب مما قاله عنتر لعبلة وجميل لبثينة ، تعاهدت العيون أن يكمل عمرها عمره .

مع وعد بالثورة والاتحاد لقتال عنيف لكل مـــن يتـــصدى لمشاعرهما محاولاً وأد غرامهما .

- أبلة آية .. تأخرنا ، هل نسيتِ أمي ..؟

- نعم يا سماح .. هيا بنا

- مع السلامة .

قالها وعينيه تناشدها البقاء .. لكنـــها رحلـــت بجـــسدها وتركت بيديه مسبحة من نبضها .

- سماح أرجوك لا تخبري أمي أننا رأينـــا نـــور حـــتى لا تغضب.

- لن أخبرها .

ببيت حميد العاشق القديم ....

- كان الفرح حلو .. رعينا[191] خلق واجد كانوا غـــايبين عنا ياخسارة الدنيا صار مايقرب بـــين النـــاس غـــير الفـــرح والموت.. الناس مايتقابلوا ولا يسألوا عن بعظهم[192] .

- تعرف ريت مين بالفرح..؟(بدون أن تنتظر منه إجابة). سلمى .

تلطمه زوجته برياحها الباردة لتنتفض مـــشاعره الدافئـــة بعشقها وتستيقظ من غيبوبتها .. تنتصب روحه داخل جسده وهو جالس صامتاً لايستطيع أن ينبس بحرف حـــتى لا يعيـــد الحروب القديمة بينهما وكل ماتبقى منها مـــسطور بكتـــاب الماضي تنتظر منه أن يسأل عنها أو أن يحاورها لتقتص منها فيه لكنه فضل أن يضع نقاطاً خرساء في أخر سطور حديثها .

- إقهرتني[193] ياحميد ؛ وهي تخظر[194] لبنتك ونـــا نناديهـــا باسمها .. فَزَتْ[195] تجري وهي تبكي بعد ماسمعت اسم البنـــت وبعد ما قامت كل النسوان تموا يخظروا ويتغامزوا عليّ وعليها. يترك زوجته تكمل ثرثرتها بعدما يتمسك - بجملة - وقعـــت منها دون أن تدري .. (فزت تجري وهي تبكي) .

---

[191] رأينا
[192] بعضهم
[193] قهرتني
[194] تنظر
[195] نهضت

يهمس لنفسه ...

أمازلت ياسلمى تذكرين حميد ..؟ ليتني رأيتكِ ! قلبي يتمنى أن يراكِ وأن يُسمعكِ وجيبه الذي لم يهدأ يوماً والله لم أنسكِ بعد هذا العمر وكلما غبتِ كلما زادت نيران شوقي إليكِ ، أو تعلمين أن يوما واحدا بجوارك أدفع فيه عمري كله .؟ أحقيقي كنتِ بجواري ولم يفصلنا سوى جدار ولم أركِ ..؟ ياحسرتي كيف تشرق شمس قلبي ولم ينعم نبضي بدفئها لحظة ..؟ كيف..؟

(يامحبوب معاك بصبري .. نين دراعك يفحت قبري)

- حميد تسمعني ..؟

- هه .. إمعاكي .

- بنتها اسمها آية ، سبحانه سمحة[196] تقول إيش ..!

- ربي يخليها لها ويسعدها .

ينهض من أمامها حتى لا تشم رائحة إحتراق حطب عشق جمعته بأيديها وألقمته لفرن مشاعره لتلتهمه نيران أشواقه لغرامه القديم ..

تأخذه قدماه هناك حيث المكان الذي تفجر فيه بئر عشقهما وكان يزمُّه لترتوي منه سلمى وحدها دونما نساء

[196] جميلة

العالم لتشاركه أشجار التين والصخور والرمال وكل مايــدب بالصحراء حزنه.!

(خليت ياعزيز العقل بكاى ليل.. والليل ماكمل)[197]

بالمترل بعد لقاء آيه ونور تنظــر ســلمى إليهمــا شــزراً

....

- ليش توخرتم ..؟

- لم نتأخر .. برغم إلحاح عمتنا لنمكث للغداء فرفضنا .

تهرع آية إلى غرفتها تحتضن طفلها الوليد خشية أن تــسمع أمها صوت مناغاته في قلبها فتئده حياً .

- سماح ..ريتم[198] حدا..؟

تتلعثم وترتبك رعباً .....

- نعم .. لا ..كلا .. هــــه .

تصفع سلمى الطفلة على وجهها حتى أن أصابعها سقطت منها فوقه فأصبح وجهها وكأن تحت جلده جمرة نار متقدة ..!

تهرع إلى آية وقد اختنقت بدموعها ..تنظر إليهــا آيــة.. تقتلها نظرات سماح وتضمها لصدرها .

---

[197] جعلت الليل للبكاء ياحبيبي والليل مااكتمل حتى اكمل بكائي

[198] رأيتم

تسألها أن تغفر لها ما حدث بسببها ..

هاهي سماح أو من يدفع فاتورة هذا الحب.. تسأل يا ترى كم هي الفواتير المطلوب من آية دفعها لقاء هذا العشق ..؟

يمر اليوم ...

آية شاردة مازالت كل حواسها تقف هناك حيث كان نور يضيء عمرها بحديثه وما عاد منها إلى البيت إلا تمثال متحـــرك يشبهها .!

ينام الجميع عداها فهناك ضيفاً جديداً يسكن عمرها يؤرقها ويسرق طعام ملائكتها .

تسمع طرقات خفيفة على نافذة غرفتها ....

– من ..؟

– نور

ترتبك وتتردد في فتح النافذة فيخرج قلبها ذراعيـــه رغمـــاً عنها ويشق صدر النافذة ويزاحمها ليرتوي من نهر غرامه ..!

– ما الذي أتى بك في هذه الساعة المتأخرة ..؟

– والله أن ساعاتي كلها متأخرة وأنا بعيد عنكِ .

– لكن قاربنا على الفجر .

- ألا تشعرين بحبكِ الذي يعانق قلبي ويرتع فيه فصار مليكه وسيده والله ماجئت إلا عندما جذبني إليكِ شوقي الذي سرق مني غفوتي وحتى صحوتي فصرت كالمخبول الذي لا يعـرف الفرق بين النار والنور .

تتوه آية في كلماته التي تسيل رقة ..

- آية اشتاقكِ مع كل نهار يسجى وليل يتجلـى لـو أن أشجار الدنيا طرحت وأثمرت أقلاما لن تكفي لتصف إليـك مقدار حبي واشتياقي وإن استطاع العاشقون جميعهم وصـف عشقهم فشوقي إليكِ لا يوصف .

تهديه آية ابتسامه من ثغرها تثمله وتكتفي بعقـد كلماتـه المرصع بعشقه ترتديه وتهنأ به عمراً .

- نور أذهب قبل أن تستيقظ أمي ويكون ليلي طـويلاً لا نهار له .

- لا أدري لماذا تعاملني أمك بقسوة مع إني أحبها ..؟

- لعل أحداً أخبرها بشيء سيء عنكَ ..؟

يذهب وهي تغلق غرفتها التي تغير هواءها بهوائه الجديد .

يستيقظون في الصباح على صراخ وعويل ...

تخرج سلمى سريعاً وتسأل أحد المارة ..

- قُتل سعيد البدوي .. قتله أحد الرجال وهـــو يتـــشاجر لفقير أهانه الرجل .

- صدِق ..؟

- نعم لقد رأيته وهو ملقى في الشارع وقـــد واروا جثتـــه بالجرائد .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. عاش عمره شهم كان راجل وسند للغلابة ياخسارتك ياسعيد.

يمر اليوم أسوداً حزيناً باكياً على خيرة شباب البدو ، سلمى تبكي شبابه وآية تتذكر شهامته معها .....

تفيق سلمى من نوبة حزنها ..

تبحث عن آية ..سمعتها آية وهى تسأل إخوتها عنها ..هل باحت لهم بسر من أسرارها أو أنها على علاقة بأحد ..؟!

بدأ الخوف يسكنها فبدأت تأخذ حذرها حتى لا تقع فريسة في شباك صياد قاسٍ لا يرحم قلب الغزال الرقيق .

كلما تذكرت نور تنسى معه خوفها واستبداد أمها .

بدأت ترحل إليه في يقظتها فذابت كقطعة سكر في كوب حنانه.. مرت عليها أياماً وليال وهى شاردة لا تسمع شيئاً فقد غطى دويُّ نبضها على كل الأصوات حتى صـــرخات أمهـــا المتسلطة .!

عاشت غارقة في بحر عشقها لم تكن تـدري بـأن هنـاك وحشاً قوياً يراقب خطواتها وسكناتها ؛وضعتها أمهـا تحـت الميكروسكوب في محاولة منها لفك شفراتهاوتفسير صمتها .

يدخل صلاح من المقهى ممسكا رأسه يشكو مـن صـداع سيفجرها .

تقابله سلمى وتشفق على دموعه الجافة التي تشعر بهـا ولا تراها فتطلب منه أن يجلس على الأرض لتعالجة كمـا كانـت تفعل عمتها.

(بالشذ) تربط رأسه بمنديل وتعقد المنديل على عصى فرد العجين (النشابة) وتدور بها وبالمنديل فيضغط المنديل علـى رأسه وتظل تضغط بالمنديل على رأسه حتى يذهب الصداع و الشذ لعلاج وجع الصدر أيضا)

ينهض صلاح يشكو من وجع المنديل وضغطه على جلـد جبهته لكنه لايشكو من الصداع .

تمر الأيام المتشابهة ......

إلى أن تأتي اللحظة التي استطاعت فيها سلمى - تـصيد الغزال العاشق - فقد رأت ذلك السهم المشتعل الـذي مـزق قلب ابنتها وعرفت من أيِّ الأقواس خرج لتحرقها نار الحـب التي اشتعلت مشاعر آية .



الفصل السابع



ثقيلة

وما تنشال نسوة عزيز

ماهي سهلة

تقيم سلمى محاكمة تضع القلب الأخضر في قفص الأتمام .. تعتقلة بجريمة يتوفر فيها سبق الإصرار والترصد .. هى المجني عليه والجاني قلبها وستدفع وحدها ثمن جريمته الشنعاء.!

تكف عين الأمومة حين ترى قدمي آية يتزلقان بأرض العشق اللزجة .

رأتها تلوح لنور بسلاماً يحمل معه أشواقها وحنينها وأجابها نور بأمواج حنين عينيه الزرقاويتين .!

مشهد أحرقها بصدرها برغم صمته الذي كان أبلغ من الكلام فتشتاط غيظا .

تتذكر من رحل وترك لها ذكرى تأكل قلبها وتتلذذ بمضغه.

(مشكا العقل زاد هوله .. إسكاته على داه خير له)[199]

بخضم تتلاطم فيه - أمواج عشقها القديم - تستقل قاربها إليها .....

تخرج سلمى من خيمتها ولا تشعر بالشمس التي تقتات من سواد شعرها وتصبغه بلعاب أشعتها فتحيله إلى ذهب منصهر يسيل فوق ظهرها .

تبحث عن الحطب هذا الستار الجاف الذي يُسدل على قلبها ليرويها .. تهرع إلى حميد ويسبقها قلبها تستعدان هي ومشاعرها لحفل راقص على أنغام نبضه .

---

[199] شكوى العقل كبر وزاد صمته خير له من الشكوى

تفر الألسن من سجن صمتها ، تنام يداها بين يديه ناعسة الجفن بلا حياء فتسري خفقاته بشرايينها. .

(غلاك جرح شيخ جروح ..إستاسع ودار ميوح ..وثان قضى عالروح .. معاك مانجى يوم خاطرى)[٢٠٠]

- سلمى .. وينك عيوني .. اشتقتلك شوق مايعرفه الشوق نفسه ،تعرفي لما نكون إمعاكي نسامح دنيتي .

- حميد يقتلني حنيني وغيابك يسرق مني أجمل مافي دنيتي

- نحبك ومانقدر نعيش من دونك .. عمري بدا يوم غلاكي .

- لا تغيب عني فنا نتوضى بدمعي في بعدك ياحميد .

- ياريت يا سلمى ماتفرقنا الأيام ..مانقدر نعيش بلاك[٢٠١] يوم واحد

- حميد كلامك يذوبني ، أحس باللرض تتحرك تحت مني .

تفيق سلمى من غفوة الماضي على حاضرها وهي تطلق مخالبها لتقتص منه هذا المؤرق للقلب والروح ..

على هذا المشهد الذي مد يده وأحترق صدرها ليقتلع قلبها فتصرخ ألماً إلى الداخل ولو حلت أسر صرخاتها لشقت صدر السماء .

---

[٢٠٠] حبك جرح كبير زاد حجمه وثاني قضى على الروح لم ينجو يوما معك فكري .

[٢٠١] بدونك

نظراته التي تصدت لها أحرقت صدرها وهي تــرى هــذا الصياد الذي يقتنص غزالها من بين أحضانها

فتتذكر وجعًا بُعث فجأة من أ عماق مشاعرها لتقوم قيامة أحزانها بتلك الذكرى التي تأكل قلبها وتتلذذ بمضغه .

تحدث نفسها ....

من أنتَ ..؟ ألكَ جسداً أم أنــك فــراغ ..؟ مالونــك ، جنسيتك ، من أين تملك قوتك .. سلطانكَ ..؟ أيــن يقــع عرشكَ ..؟ تأتي بهدوء وترحل بضجة .. مرة حلماً ومــرات كابوساً .! ألا تموت ..؟ ماأنتَ إلا كهلٌ لا تموت أبــدا بــل بعدما تشيب في قلب تعيد بمكر قناع الشباب فتتسلل إلى قلب آخر تمنحه حلاوة وبذيلها حنظلاً لايطيقه نبض ..آه لو تمكنت منك لفتكت بك ومزقت جسدك والتهمتُ كبدك .

غررت بي ، جلعتني أحيا عمري كله بجرح ينبض داخــل صدري جعلتني أعيش لارغبة لي في الحياة بعدما سرقت مــني أروع أسبابها .

رماد نيران عشق أهلته فوق رأس عمري ومــن آن لآخــر ترسل رياح ذكرياتكَ لتنفث هذا الرماد فتحيا النيران من جديد لتلتهم أثواب أيامي البالية وها هو قلبي بيديك أصبح حفرة من حفر العذاب .

ألم تكتفِ بي ..؟ ألم تشعل بي نارك لتـدفيء بها صقيع أيامك..؟ أوتأتي الآن لتحرق قلب ابنتي وتقضي على أيامها..؟ لا والله لن أسمح لك بهذا لن أجعلك تتلذذ بعذابها و تتسامر على حرقة عينيها من سهر ليلك ؛فأنت مرض عضال لا تترك الجسد إلا وبه علة قاتلة ..لن تسرقها كما سرقتني.

(ثقيلة وماتنشال نسوة .. عزيز ماهي سهلة)[٢٠٢]

يكشر الأسد عن أنيابه بعدما قرر أن يفترس الغزال الرقيق .

ليبدأ في تجهيز محاكمة عاجلة وقد أقر الحكم قبل سماع الدفاع وهو – نفي العشق– من قلبها إلى بلاد لا يعرف للعودة منها طريقاً .

– آية .. وينك تعالي توا .

– نعم يا أمي .

– كنتي تخظري[٢٠٣] من الشباك من شوية ..؟

– نعم .

– مين اللي عدا من شوية ..؟

– مروا كثيرين .

تعض سلمى على شفاهها غيظاً .

---

[٢٠٢] ثقيلة ولانستطيع حملها نسيان الحبيب ليس سهلا
[٢٠٣] تنظرين

ترتعد آية بعدما قرأت ملامح أمها ، عرفت أنها فكت شفرات خطاب قلبها وقرأت حبر عشقه السرّي .. كانت على يقين أن قسوتها تسللت لتسكن خلاياها وهي على يقين أنها ستقتل هذا العشق لا محالة فأرسلت سماح إليه لتخبره بأنها تريده في أمر هام .

ليوذن مؤذن العشق ليلاً على مأذنة الغرام يستدعي العاشق الولهان ليتلو في محرابها صلوات شوقه تسمعه آية فتفتح قلبها قبل النافذة وقد أختفى البدر خجلاً .

يبدأ نور بخيوط شوقه فتكمل آية غزل معاني لهفتها ليقف سيل حروف العشق عندما تتذكر آية أمها .

- نور .. أمي تعلم مابيننا فهي تغلق دوماً النوافذ وتراقب همسي وصراخي ، تفتش في أدراج مشاعري بحثاً عن سر تعلمه جيداً وتريد أن تتأكد من صدق حدسها .

- هل سألتك عني ..؟

- كلا لم تفعل .. لكني أقرأ صمتها فهو أمَر من حديثها ، عند صمتها أعرف أن بحضانة مشاعرها بركاناً مبتسراً ينمو رويداً وهو على وشك الأنفجار .

- لا عليك .. سأتقدم طالباً يدك .

- ماذا تقول ..؟ يا ألله كم أنا سعيدة فحبنا يحتاج إلى النور كي ينمو بصحة وعافية .

- سأفعلها فأنتِ موجة حب لن ترقص ســـوى ببحـــري ونجمة لن تسكن سوى سمائي لا تخافي ستكوني معي دوماً ولن يفرقنا إلا الموت .

- بعد الشر .. سأطلب من ربي واستجديه أن يمنحك أيامي السعيدة .. أرحل الآن قبل أن ينتحر هذا العشق برؤية أمي له .

تسمع آية باب غرفتها يفتح فتلقي بنفسها في الفراش لتشعر أنها سقطت من الدور العاشر فتقترب أمها منها فتـــضع آيـــة حجراً ثقيلاً على صدرها من خوفها .. تخرج ســـلمى وهـــى تهرول بين شكها ويقينها سبعة أشواط لا ترحمها .

صفاء تقف بالشارع تنتظر أحداً فيمر نور ....

- مرحبا صفاء .. لماذا تقفين هكذا ..؟

- انتظر صديقتي . ألا تريد أن تسألني عن أحد ..؟

- من ياترى ..؟

- هل تتذاكي عليّ ..؟ طبعا آية ألا تحبها وتحبك ..؟

- أرجوك آية جارتنا لا يحق لنا أن نخـــوض بـــسيرتها .. إلى اللقاء .

أعرف أنك تحبها أيها الغبي.. ألهذا الحد يعشقها حتى أنه يخشى ذكر حبه لها ..؟ يالها من محظوظة بكل شيء.!

لترتفع أكثر رايات الحقد فوق ملامحها فتنكسها فور رؤية شخص يرقص قلبها على دق خطوات القادم .

- لماذا تأخرتَ .؟

- لم أتاخر هو موعدنا .. ماذا تريدين ..؟ أخبرتيني بـــأن هناك شيئاً يخص آية.. هل علمتِ أنها تحبني ..؟

تتقلص ملامحها غاضبة ، يعتصرها حزنا يكاد يفتك بها .

- إلى متى تتجاهلني ..؟ ألن تشعر يوماً بي..؟ أذوب فيـــك عشقاً وتترنح أشرعة مشاعري أمام ريـــاح قلبـــك (فتتـــشج صارخة في وجهه) مابها آية .؟ الكل يعشقها ألم تشعر بي وأنا التي تحبك .. لا أنام من عشقك الذي أحرق سفن حنـــيني في بحر جفائك قتلني حنيني إليكَ ، ألن تفكر يوماً بي..؟

فتحي يعيش لحظة ذهول بما يسمع ويشفق عليهـــا ولكـــن لاحيلة لديه فإن كان دواؤها فهو يبحث عن دوائه .. فكيـــف يداوي غيره وهو المريض ..؟

- أنتِ جميلة .. ولكن ..!

- لكن ماذا ..؟ ألا استحق قلبك ..؟ لماذا آية بالذات ..؟

تختفي قطة العشق الحزينة وبلحظة تخرج - نمرة شرســـة- تفتك بكل من حولها حتى وإن كان من تحبه

- أنت لا تفهم شيئاً آية عاشقة .. تحب .. أسمعت أنها عاشقة .؟

- عاشقة من .. انطقي بالله عليكِ ..؟

- نعم لا تحبك وتحب غيركَ .. اختارت شخصاً آخر وفضلته عليك أرأيتَ هاهي تقتلك بنفس خنجرك الذي دككته بقلبي..؟ أنت تنفر مني وهي تنفر منك لتعلم كم نحن متشابهان فلماذا تجري وراء وهم أطلق على نفسه اسمها وأنا التي تمنحك الحب دون مقابل ..؟

باحتضار الحروف فوق شفتيه وخفوت نبضات قلبه التي أنزوت باكية بزوايا روحه .

- من هو ..؟

- نور .. الذي لا يمتلك شيئا سوى قلبه .

يرحل من أمامها دون أن ينظر لها حتى لا ترى دموعه وتتندر على لحظاته المجروحة سار وهو يهدهد عواطفه بعد سماعه بعشق حبيبته .

يعود لبيته وقد ربط حزنه ووجعه وآلامه وبقاياه الممزقة خلفه تصدر ضوضاء يقطع أوصاله صراخها.

يدخل غرفته التي شم فيها رائحة قبر ..كأنه قد أغلق خلفه أبواب دنيته وقد صفعت الدنيا في وجهه أبواب السعادة .يرتفع

نبض قلبه ومعها حرارته ليرتعش مريض العشق ودواؤه آيـــة ،
لكن هيهات أن تداويه وهى المريضة بعشق آخر.

يمر ليل عاشق جديد يسترق قمره ونجومه السمع يتسمون
فيثملون ويترنحون في دروب السماء سعداء .. ليخفي القمـــر
جزءاً من ضوئه ؛ يواري العاشقين فلا ترصدهما العيون .

تخرج سلمى وتسمع همساً ....

تزأر وهى تنظر من خلف النافذة لترى نوراً يصاحبه شـــبح
العشق الذي يمد يديه ليطبق على عنق آية ....





الفصل الثامن

ظلام وعجاج وخلو

بعد عزيز

يا دار باقية



تنهره سلمى وتأمره بالرحيل فهو ليس الـــزوج المناســـب لابنتها ، تغلق النافذة بوجهه لتتعتم حياة آية .. تلتفت إلى آية تصفعها و قد حفرت في وجهها قنوات للدماء بحجم أناملها .

نور لم يتحرك كأنه مسمار غُرس في الأرض يعتصر شـــفتيه ألماً ؛ كأنه هو من تلقى الصفعة بدلاً من حبيبته .. تبكي آيـــة ليس ألما من الصفعة لكن من عذابات توابعها .

أصر نور على الوقوف أمام جبروت الأم وعـــزم علـــى أن يحافظ على غرامه بكل ما أوتي من قوة .

آية لم تستطع الهروب من وجيب قلبها فهي ترى نـــوراً في كل طريق تسلكه كأن الطرق رصفت بصورته أو إنه أصـــبح ملامح لتلك الدروب .. تتجرع بمرارة كأس الفراق القاتل وقد اعتادت على السفر بقطار الوحدة لتصل إلى محطات الانعـــزال لكنه معها لايفارقها فهو وجودها إن كان لها وجود تعرف إنه قدرها وستقف أمام قطار الظلام إما أن يدهسها أو يقلـــها إلى محطات النور .

بالمترل ....

قناع الغضب يحتل وجه سلمى كأنه وجهها الحقيقي تتجهم بوجه صلاح صارخة ..

– حتقضي عمرك كذا ..؟

- ماذا حدث هل تغير شيء..؟ وإن حدث شيء ماالــذي تحتاجينه مني ..؟ نحن هكذا منذ تزوجنا لم تشعريني أنك بحاجة لوجودي دوماً يسعدك الإبحار بنا وأنت تمتلكين دفــة حياتنــا توجهينا كما تشائين تجدفين وحدك وقد كَسرت كل مجاديفي تركتك تفعلين وأنا أنعم بلحظات أراكِ فيها منهكة القــوى.. لكن مالذي حدث وجعلك تنعمين علــيّ وتــشعريني بأنــك تحتاجيني ..؟ بل عجيب أن تترلي من عرشــك وتتحــدثي إلى الرعية فنحن هنا نلبي أوامرك فقط ..ترسمين الخطط ونحن نسير عليها دون مناقشة ولانتخطاها أبدا ..!

تحدث نفسها وهي تكاد تتقيأ كل أيامها معه ...

كما أنتَ لن تتغير ! تنعم بالهدوء وفجأة تتذكر أنك رجل ويجب أن تتحمل ما أحمله عنكَ .. ثم تأتي فرصــتك وأنــت كامن في بطن سفينتي غافٍ لا تدري بشيء و مــا إن تــشعر ببعض الإرتباك أو الاحتياجً تتذكر رجولتك المهملة المــصلوبة على أرفف أيامي تباً لك من رجل لاحاجة للدنيا به.

- لماذا تنظرين إليّ هكذا ..؟ ماذا هناك ..؟

- آية ..

- مابها ..؟ أنها أكثر المطيعين لكِ هي لوحة رسمتها بيديكِ وعلقتها على جدران أوامرك وجبروتك أنها تنفــذ ماتريــدين وتفهمك من نظرات عينيك بعدما قصصت أظافر قوتها ..!

- غاوية[٢٠٤] ..!

- تعشق ..! هل كبرت لهذا الحد ..؟ ماسنها ..؟

- تريد تموتني ، هدا هو ردك على كلامي .؟ قلت أنسك بتروح تقتلها ياناري منك .!

يشعر صلاح ببعض الخجل ... ويكمل

- قليلة الحياء .. من هذا الرجل الذي ..؟

- نور جارنا .

- ولد مؤدب ، لكنه لا يعمل ولا يستطيع أن يلبي طلبات الزواج .

- إيش إتدير[٢٠٥] معاها ..؟

تخرج سلمى من عينيها رماحا ترشقها بصدر صلاح حاملة معها تهديداً صريحاً إما أن تبني بينهما سداً وإلا ستدفع أنت الثمن .

ينظر إليها صلاح بنظرات تحمل بين طياتها الكثير من الاتهامات القاتلة التي لا تملك سلمى بنوداً للدفاع عنها .

نظراته مملوءة بأبجدية غضب تقول :

---

[٢٠٤] عاشقة

[٢٠٥] تفعل

كيف تغضبين هكذا وأنت سيدة العاشقات ..؟ لماذا كـــل هذه الثورة ياسيدة العشق الأكبر ..؟ ألم تكون إحدى فارساته تصولين وتجولين في ساحاته ..؟ كم سمعت صـــهيل عـــشقك ينخر صدري برغم صمتك الذي كفنتني به طوال عمرنا,كـــم سمعت اسمه يخرج ممزوجاً بدقات قلبك فكان لها دويّ أصـــابني بصمم فتك بي ، كرهت ابني يوم سميته باسمه وكأنك تزرعينـــه بعمرنا رغماً عني ، و لم يكفكِ أن تناديه بالـــسر بـــل بـــالعلن والألعن من هذا أن أناديه معكِ لترتشف أذنك حروفه من فمي أيضاوأنت تمتصين رحيقها .! لكن خيب الله رجائك فمنحك به نبته خبيثة لم يدم لها العمر وكأن الله اشفق عليّ من تمزيقـــي بين قلب عاشق لم ينل مراده وأب يحن لطفله لكـــن كيـــف تصبحين قاضي تحكمين على الحب بـــالموت وأنـــت إحـــدى ضحاياه ، هو قاتلك وقاتلي من جعلك تقتصين مـــني وأنـــا لم أذنب بحقك وجعلني خاتماً في إصبعك .. فعلتُ معك كل مافي وسعي لوفعلت ربعه مع غيركِ لقَبّلتْ حذائي ليلا ونهارا ولكان جبينها دفترا أسطر عليه أوامري وتنفـــذها حبـــاً ورغبـــة في إرضائي.. عجيبة أنت ..! لكن أقلب الجرة على فمها تـــصبح البنت مثل أمها .

تغض سلمى بصرها عن سطور نظراته وهي تعلم جيداً ماذا تحوي تلك الأسطر من مداد مسكوب فيه عذاباتها وأحلامهـــا التي أصبحت أطلالا ينعق فيها غراب صلاح وتـــسكن فيهـــا بومات لامبالاته

(لو كان الغلا قتال ، لك الله ياارواحنا)[٢٠٦]

تصرخ على آية ، ليدخل الغزال العاشق في قفص الإتهـام بعدما جردها من كل أسلحتها .

– آية .. إنتي غاوية ..؟

– نعم .. كلا يا أمي .

تصرخ سلمى ليحمل صوتها آية فترتفع أقدامها من الأرض فزعاً .

– ونور ..؟

تتلعثم آية .. ينتفض قلبها و يجري يميناً ويساراً لا يعلم أين يختبئ ليحافظ على سر ساكنه ويواريه من خناجر أمها .

– مابه نور يا أمي ..؟

– أنت غاوية فيه .. ماتكذبيش عليّ .؟

ترتبك آية بعدما فر لسانها وسقط رعباً ببئر بلعومها .

– مالقيتي غيره .. مامعهوش يجيب لك شي ولا حتى ثمـن دبلة . ما اخدتي درس من الفقر اللي أعيشه مع بوكي .

– هل أنا أذيقك الفقر ..؟ ألا أعطيك راتبي كله ..؟

---

[٢٠٦] إن كان الحب مميت لك الله يا أرواحنا

– أي راتب ..؟ مليمين ما يكفوا حتى وكلنا[٢٠٧] .

– هذا هو رزقي ، ليس لي حيلة فيه .

– بدال ما تقعد على القهوة دور على شغل تاني جيب منه قرشين يكفونا ونديروا بيهم شي لعيالنا .. هه تعـــال هنـــا .. توا[٢٠٨] بس تكلمت ليش ماقلت شيٌ من بدري وكن الموضوع مايخصك طيب قول لبنتك كلمتين ربيها .

– آية .. ما هذا الذي فعلته ..؟ أسمعي كلام أمك .

– ياخيبتي منك هدا اللي قدرت عليه .. ياراجل عيـــب... آية موضوعك هدا تنسيه ، إنسي تكلمي العيل هدا مرة أخرى لا تفكري فيه شيليه من راســـك وإن مـــاعرفتي حيكـــون لي تصرف تاني معك .

– لكن ياأمي .

– قلت لك اقفلي الموضوع وماتفتحش مرة أخرى .

ينقضي اليوم على ذلك الحي .....

ينام سكانه لكن هناك عيوناً فقدت ذاكرة النوم .! أربعـــة من سكانه يقتلهم الحب ويذبحهم البعد والنوى ..هنـــاك مـــن

---

[٢٠٧] طعامنا
[٢٠٨] الآن

يحاربهم ويحاول وأد العشق بقلوبهم بقتل جماعي لايعرف رحمة ولاهوادة ، وآخرون يأبى الهوى أن يجمع قلوباً لم تأتلف .. هذا الذي لا سلطان عليه فلاوطن له ولاجنسية ولادين .

تبدأ الأم في بناء حائط صد بينهما وكل يوم تجتهد في البناء ليرتفع أكثر فلا تكون هناك فرصة ليقفز نور من فوقه أو حتى أن يسمع نشيج الأميرة العاشقة السجينة خلفه.

- سلمى .. تعرفي دكتور عيسى ..؟

- صاحب العيادة اللي بآخر شارعنا ..؟

- نعم ..كان معنا بالمقهى .. يبحث عن ممرضة مارأيك لو عملت عنده آية ستتعلم مهنة مع راتب معقول وقد يشغلها هذا عن نور .

- موافقة بشرط .. إنك تجيبها وتوديها كل يوم .

- موافق .

نور المصلوب دوماً كالسماء ينتظر أن يطمئن على أرضه ،لا يمل ولا تكل قدماه من الوقوف كعمود إنارة فقد مصباحه حتى صار كأنه مسخ لا حاجة للشارع به .

بعيادة الدكتور عيسى ....

- ما اسمك يابنتي ..؟

- آية ..هل تعرفين شيئاً عن التمريض ..؟ هـــل تقـــرأين وتكتبين ..؟

- أقرأ وأكتب لكن هذه أول مرة أعمل فيها .

- إذن ستقومين باستقبال المرضى وحجز الكشف والمحافظة على الأدوار وبعد الإنتهاء تنظفين العيادة .

- أتعلمين إنك بشوشة الوجه ولك ابتسامة رقيقة .

- شكرا دكتور .. وماذا عن التمريض ..؟

- سوف أعلمك كل يوم شيئاً جديداً .

تحلق آية بأجنحة نبتت لها ويزداد منقار تعنتها فتفـــتح بـــه قفص عزلتها هاربة من جبروت أمها لعلها ترى نـــوراً الـــذي يتوارى ضوءه خلف سياج بنتهُ أمها حول روضة قلبها .

كانت على يقين بأنها ستراه فترتوي أودية العشق الجافة من الحنان الذي يتدفق من عينيه .

وضعت آية لمساتها الساحرة على العيـــادة حـــتى صـــارت ككوب اللبن تنضح بالنقاء .

يدهش دكتور عيسى ويتنفس الصعداء بعدما أزاحت آيـــة عن كاهله غباراً تراكم من جراء الممرضات السابقات فأقبـــل على العمل سعيداً .

يزداد عدد المرضى وهو على يقين أن وجه آية وجه خـــير عليه .

طرقات على باهم ....

- مرحبا خالتي أم رؤوف ...

- أهلا آية .. أين أمك ..؟

- بالداخل تفضلي خالتي .

- مرحبتين أم رؤوف شخبارك وأخبار عواويلك ..؟

- بخير يا أم آية .. بس البنت الأخيرة عدت ســـنتين مـــن عمرها ومانطقت حرف .. خائفة أن تكون خرساء .

- لما تنادي عليها تسمع وتجيك[٢٠٩] ولا لأ ..؟

- تسمع .. لكنها لم تقل كلمة .

- متوخرة شوى شوفي اللي حنقولك عليه إتديريه .. تجيبي دحية (بيضة)....

(بيضة حمامة يتم كسرها وتوضع فيها المياه ويشربها الطفل أو يأكل لسان خروف أو بخار المياه المتكثف في غطاء الوعـاء أثناء الطهي يشربها كم مرة).

---

[٢٠٩] تأتيك

- ديري[210] اللي قلت لك عليه وقولي يارب .. إن شاء الله مش حطول غير وهي إتكلم .

- الله يخليكي يا أم آية وتفرحين بزواج آية .

- كتر خير يا أم رؤوف الله يشفيها وتفرحي بيها.

---

[210] انتبهي



الفصل التاسع



دوايا

في عزيز بعيد

يا طبيب تشخيصك خطا



يشرق الضوء من باب العيادة فترتبك آية وترتعش والخوف والشوق يشطراها نصفين .

- نــــــــور .. مالذي أتى بك هنا ..؟

- أنا مريض .

تلف نور وتتحسسه بنظرة كمسح شامل لجسده فيرتد إليها بصرها ليطمئنها على صحته .

- خيراً لا تظهر عليك أي أعراض مرض .

تضع له الترمومتر الذي وصل لنهايته العظمى قبل أن تضعه بفمه من فرط حرارة سرت بكيالها ..يفتح فمه فيشعر ألها تضع قطعة حلوى ..!

- درجة حرارتك طبيعية والحمد لله .

- والله لو وضعت يدك على جبيني ستشعرين بـــأني لـــيس محموماً بل أنصهر إنصهاراً .!

- إرحل لا تضيع نقودك أنتَ لست مريضاً .

- والله أني أشد مرضاً ممن شارف على الموت .. مرضي لا دواء له إلا أنتِ ، قربك هو دوائي قلبك مشفاى ومــشاعرك كل مسعفيني .. لو تعلمين كم يحن جرحي لدوائكِ ماغبـــت عني لحظة أشعر أني صائم عشقاً وأنت هلال عمري .

نسيَ العاشقان المرضى حتى المرضى نسوا مرضهم وكــأن نظراهما تكتب روشتة علاج تتعاطاها أرواح المرضى فتهــدأ ألامهم وأوجاعهم .

يصر نور على رؤية الطبيب ..

تشقى آية لتحصل على بعض التركيز أثناء عملها ، أما نور فلا يرى سوى قلبه الذي يتحرك أمامه مع كل خطوة لهــا ولا يشعر بوجود أحد وكأن الدنيا خلت إلا منهما فكان يــسترق السمع لخطوات قدميها فيشعر ألها تخرج من صدره كم تمنى أن يفترش نبضه لتسير عليه فيقيها قسوة الأرض ..كلما أتى دوره ناشدها إدخال من يليه فتبتسم باستحياء أمام رقة هذا المــريض المشاغب ،..أنتهت من كل المرضى و لم يبق سواه .

- تفضل حان دورك .

يلتفت نور حوله ولايجد غيره يــدخل الأثنــان في دوامــة ضحك نسيا معها آلام الفراق .

- مرحبا تفضل ، مم تشكو ..؟

- بعض الآلام بصدري وحرارتي مرتفعة .

- هل هناك سعال أو ألم بالحلق .

- كلا.

يضع الطبيب السماعة على صدره يناشدها نور أن تــشعر بما يختلج بصدره وتوصل إلى الطبيب وجع عمره والنيران الــتي

تتفاقم كل يوم وهو بعيد عن حبيبته عله يستطيع أن يعود مرات ومرات ليراه الطبيب .

- ماشاء الله قلبك مملوء شباباً وحيوية أنصحك بألا تعرض نفسك لتيارات الهواء .سأعطيك بعض المسكنات فأنت تعاني من برد بالعضلات فلا تقلق وسأراك الأسبوع القادم إن شاء الله.

يخرج نور يمد يده ليمسك يديها وبدون أن يشعرا تتلحم اليدان وتتشابك الأصابع كأنهما يعلنان أنهما لن ينفصلا مهما جرى .

تستجديه بعينيها أن يرحل حتى لا يحرجها مع الطبيب فخرج وهو يتمنى ألا يكون للعيادة باباً .

دكتور عيسى ينادي آية لتتقاضى راتبها وقد زادها نصف شهر لنشاطها و هي ترجوه داخلها أن لا يمنحها راتباً فهي برؤية نور ولمس يديه وحديثه قد أخذت راتب عمرّين .

- هيا يا آية .

- نعم يا أبي أنا قادمة ..أرأيت راتبي وقد زادني الطبيب نصف شهر ..؟

- حسنا ..اعطه لأمك .

- ألا تريد أن تعرف كم تقاضيت .؟

- لا يهم .. أتعرفين حتى أحضر لآخذك تركت عمك محمد بالمقهى ودور الكوتشينة كان على أشده وقد أذقته ويل الهزيمة وأضحكت كل من كان بالمقهى حتى كاد ينفجر غيظاً .

تتقلص قسمات وجهها من حديثه هذا .. كم كانت تتمنى أن يشاركها فرحتها بأول راتب لها .

تدخل البيت مستبشرة بوجه أمها وتفتح يدها لتسكب فيها مياه الحياة لتروي عطش العمر.

تربت سلمى على ظهرها وتقبلها فتلقي آية رأسها بصدر أمها .

تحدث نفسها ...

ما أجمل حضنك يا أمي ! أقسم أن قلبك لا يعرف سوى الحب والحنان .. شدته هذه كأنه في حفل تنكرى يرتدي ثياب القسوة وانتهى الحفل ونسيَ أن يخلعها فالتصقت به .. والله أحبك رغم قسوتك ، لا أرجو من الدنيا سوى رضاك .. يارب ساعدني ليلينَ قلبها ولا تقتل حبي .. أعرف أنه لن يحبني أحداً بقدر حبها لي لكن آه يا أمي لو جربت يوماً الحب لعرفت أن بعدك عن الحبيب لهو أشد قسوة من الحديد فهو لن يلين لو طرق بألف مطرقة حنين .

سلمى تشكو لجوارحها....

آه ياابنة عمري لو تعرفين كم أحبك وأخشى عليك من هذا المارد الذي أخرجته من قمقمه و لم يُصبني منه سوى الوجع

والآلام.. فإن أخرجته لن تعرفي كيف تعيديه ولن تستطيعي تحمل ألاعيبه والتي برغم روعتها موجعه حد النحر كطفل يلعب بشفرة حلاقة مطمئنا لها .. آية تتخيلين أنني لا أعرف الحب ولا أملك قلباً ولاتعلمين أني عشقته وعشقت طعناته حتى سهمه البعيد أرده و أحضنه إن طعونه ليست قاتلة لكنها تحفر جروح لا يستطيع الزمن إبرائها ..حبيبتي - أنا جرح للحب نبتت له امرأة - ليتني أستطيع أن أمنحك مصلاً استخلصه من دمي لتتفادي لدغاته .

أمام ورشة فتحي ...

يأتي الغلمان والورشة مغلقة يجلسون أمامها ، لكن فتحي غائب يذهبون إليه .!!

- أين الأسطى فتحي ..؟

- مريض قليلاً .. يبلغكم اليوم أجازة.

- ألف لا بأس عليه ، هل ينقصه شيء فنلبيه له .

- ألف سلامة على الأسطى ياحاجة .

يمر يومان والثالث .....

هزل قوام فتحي و لم يستطع الوقوف .. احمرت عيناه فكأنما اقتلعتا وبات مكانهما قطعتا جمر .

تستجديه أمه أن يأكل شيئًا لكنه يتقيؤه قبـــل أن يـــدخل معدته ؛كأن قلبه قد أعلن الحرب واستخدم جسده كأســـلحة تقاوم روحه وتهزمها لكن هل يعلم قلبه أنه هزيمته مضاعفة أمام فقده حبيبة عمره..؟

- فتحي ماذا بكَ ..؟ يجب أن نذهب إلى الطبيب .

- لا تقلقي يا أمي وعكة وستمر سريعاَ .

أم فتحي تبكي .....

- يجب أن يراك الطبيب أشعر أني سأفقدك .. ياربي لـــيس لي سواه .

- لا تبكي يا أمي ..أنا لا أحتاج لطبيب أرجوكِ لا تخـــافي فقط اتركيني بمفردي قليلاً .

- كما تريد ..لكني لن أسكت سوف أرســـل - لآيـــة - أسألها .

ينتفض من مرقدة كأن اسمها ماء مثلج سكب فوق مشاعره الملتهبة .

- وما دخل آية بمرضي ..؟

- ألا تعلم أنها تعمل عند دكتور عيسى ..؟

- هه .. أشعر أني أحتاج لزيارة الطبيب الآن .. فأنا مريض فعلاً .

- سبحان مغير الأحوال ..!

- هيا بنا الآن .

بالعيادة ....

آية ترتدي الأبيض "ملاكاً" يتوجع قلبها مع كـــل تـــأوه لمريض وتذوب مشاعرها مع كل نزف يولد من رحم جرح لا يعرف الإندمال ..تزيد سيول المرض فتشعر بأن الناس جميعهم مرضى .. قَبرت الألسن بالأفواه ودفن داخلـــها صـــراخها.. صارت الأيدي تشتكي فمن يضع يده على بطنه ومنهم علـــى صدره فكانت تقرأ شكواهم المكتوبة بوضعية أيديهم .

أما صفاء المصلوبة بالشرفة ثلاثة أيام منذ غاب فتحي تكاد تموت وهى لا تعرف سر اختفاؤه، لكنها تعرف إنه بالبيت لأن سيارته لم تبرح من أمام مترله .

كم لفحتها شمس الظهيرة وبللها ندى الليل وهى تنتظـــره وقد التهمت عقلها ألوف الأسئلة و لم تجد لها وجبة أجابـــات تشبعها .

رأت فتحي يخرج بصحبة أمه فهرعت خلفهمـــا ..كـــأن الثلاثة أيام ثلاثين عاماً تسلقت جبال عمره ولهشتها بلا رحمة.. أستوقفته وعيونها تخنقها نظرة خوف وشفقة عليه .

فتحي يحدث نفسه ......

ماهذه المصادفة العجيبة ..؟ صفاء أنت آخر من أتمنى أن أراه الآن .. تقتلني نظرات العشق بعينيها وهذه اللهفة التي تدك جدران حياءها وترتمي فوق صدري باكية .. حتى أمي تنظر إليها وهى تتعجب لكل هذا الاهتمام والخوف البازغ من حواسها .. ليتني أرى نصف مشاعرك بعين آية ليتها ترى في ربع ماترينه أنت .. سامحيني صفاء فلا عصى تستطيع أن تؤدب مشاعرنا أو شراع للخفق يملك تغيير إتجاه رياح نبضنا ..للأسف قاربي يرفض السباحة ببحرك أما قلب آية لو كان بحراً من الرمال المتحركة فقاربي يتمنى أن تبتلعه رمالها حتى لو كان في هذا قتله و هلاكه .

- فتحي مابكَ ..؟ أرجوك طمئني عليك .

- أبداً بعض الآلام وستزول أن شاء الله .

- بماذا تشعر أرجوك أكاد أموت قلقاً عليك .

فتحي يحمر وجهه خجلاً من أمه التي تتأرجح نظراتها بين عينيهما مدهوشة بما يحدث فتبتعد قليلاً.

- هل سبب مرضكَ هو آخر لقاء كان بيننا ..؟

- أي لقاء ..؟

تغلق عينيه أبوابهما حتى لا تعترف لها بأن حديثها عن آية وعشقها لنور هو سبب مرضه .

- ألهذا الحد تهواها ..؟ أتمرض لأنها لا تحبك وتحب غيرك..؟ سامحك الله أتحب من تنساك وتنسى من تذوب مع كل حرف باسمك .

- بعد إذنك .. لا أستطيع الوقوف .

يرحل من أمامهما بعدما أغلق الكوبري الذي سيمر عليه غضبها فهي تعلم موضع جرحه وتملك أفدنة من الملاحات التي ستجمعها وتضعها على جرحه دفعة واحدة .

سبقته أمه لتحجز له بعيادة دكتور عيسى وما إن تراها آية .

- مرحبا خالتي .. خيراً ماذا بك ..؟

- أنا بخير فتحي هو المريض .

- كفاه الله شر المرض لا تقلقي سيراه الدكتور وسيشفى ان شاء الله .. هاهو رقم دوره .

يهرول المريض الذي تعافى فجأة وكلما أقترب من العيادة كلما رحلت فلول المرض من فوق تضاريسه ..قلبه وجسده يتصارعان قلبه يهرول به وجسده المنهك يستحثه أن يبطيء قليلاً .

الفصل العاشر

نطلق عياط

ما من جرح

من غيبة قديمين يخطرو

يدخل فتحي العيادة بحثاً عن دوائه الحيّ ، ما إن تراه آيـة تهرع إلى مساعدته .

يلمس يدها ويغتسل بلمستها من أدران مرضه فيتـنفس روحها التي شعر أن سلامها سكبها بيديه ليمسح بها وجه قلبه بحرير يديها بل إنه يتكور كله ليسكن راحتها .

تشير إلى المقعد الذي اشتاقته فجأة ؛ لتتخلص من يده وهذا الأسر الموجع .!

تضع له الترمومتر فيحيا الزئبق داخله كـشيطان رجـيم ليتحرك معلناً في فجور قسوة بُعدها عنه ويريها كم النار الـتي تصطلي داخل روحه من لامبالاتها بمشاعره فتزيد دقات قلبـه أمامها صارخة : أحبك .

تفر آية من نظراته اللاهثة بحثاً عن بقعة حب بملامحها وحتى تقطع كل خيوط الحديث لتسيل فوق شفاه مبتورة .!

- تفضل ،الدكتور ينتظرك .
- ألن تدخلين معي ؟.
- كلا أنا دوري يقف عند باب الطبيب .
- أتصدقين يا آية .. الذي يراك لا يحتـاج إلى طبيـب، تكفي النظرة بعينيك ليبرأ مرضه .

تخور قوى الباب فقد سمعه مثلما سمعته .!!

في غفلة من الجميع كانت صفاء تقف عند بـــاب العيـــادة مذهولة ؛ لم تكن تعرف أن آية تعمل بالعيادة ..وها هي تـــرى فتحي الذي فر من أمامها بحجة عدم قدرته على الوقوف يقف أمامها كعبد مذنب يعترف لها بذنب عشقه عليها تغفر لـــه ..! وتتمنى الموت لهذا الذي يعيث فساداً بصدرها بعـــد أن كـــاد يموت خوفاً عليه ..تضغط على شفتيها حتى إنهما جرحتا دون أن تشعر ونزفت منهما دماء الغل والحقد على الغزال الـــبريء لتهرب من أرض المعركة التي هُزمت فيها دون قتال يذكر لكنها تصر على العودة والانتصار مهما كلفهـــا الأمـــر ،حـــتى وإن استخدمت فيها أسلحتها غير الشريفة .

- مرحبا بنيّ ، مما تشكو ..؟

- لا أستطيع الوقوف .. وإن أكلت شيئاً فـــوراً أتقيـــؤه وحرارتي مرتفعة .

يبحث الطبيب بوديان جسده الجافة عن سبب لعلته فـــلا يجد .. يعطيه بعض المسكنات ويطلب منه عيادته مرة أخـــرى ليطمئن عليه .

الطبيب يحدث نفسه ....

ما بال الشباب ..؟ ماذا حدث لهـــم .؟الجـــسد لـــشباب وأوراحهم شابت داخله كأنه قبر يتحرك برُفات حية ..!هل

الحياة تقسو عليهم أم أهم يفتقدون الحافز الذي يجعلهم يقبلون عليها أم أهم لايعرفون كيف يتعاملون مع معطياها كأنهــا أمّ ضنت بحليب حناها فخـــرج ابناءهـــا يعقوهـــا ويجحـــدون فضلها..؟ يضرب كفا على كف ..

أمه تمر ع عليه .

- ماذا قال لك الطبيب ..؟ طمئني .

آية تقف بعيداً .. تُرسل أذنيها ولا تعلم لماذا تريد أن تطمئن عليه ..؟ هل شفقة على حالة أم أنه يعنيها أم أنهـــا تريـــد أن تطمئن على نتيجة جرح كانت هي مديته أم ..أم ....؟

فتحي يحدث نفسه ......

أيها الطبيب أتمنحني ورقة تتخيل أن بها دوائـــي ؟ دوائـــي يتحرك بعيادتك تمنأ به جدراها بلمسته يداوي كل ركن فيهـــا خذ ثمن الكشف أضعافاً مضاعفة بل خذ كل ماكسبت طوال عمري وامنحني دوائي .. أحبها وليتها تشفق على قلبي العاشق المريض ببعدها عني و ليتك تداوي قلبها الذي يعـــشق غـــيري (هه........) نعم يعشق غيري .. يجب أن أعرف أن لي حدا يجب لا أتعداه فكرامتي ورجولتي التي أزهقتهما تحت قـــدميها يجب أن أراعيهما.. تباً لهذا العشق الذي يجعلنا ننحني إنكساراً لمن نحب وتصبح أرواحنا دقيق نعجنه بمياه عـــشقهم ونلقـــي

بأنفسنا في قبضتهم يشكلوننا كما يترائى لهـــم أو أن يحرقونـــا بأفران تجاهلهم فنسكن سلال نسيانهم .!

- فتحي .. ماذا قال الطبيب ..؟

- قال أني بخير .. هيا يا أمي .

يواري نظراته عن آية حتى لا يرى ابتسامتها فتموت علـــى شفتيها قوته وكرامته المهانة .

- شكراً آية ..

قبل أن تكمل الأم جملتها يصرخ فيها .

- هيا يا أمي أم سنكمل اليوم هنا نتسامر .

تنظر أمه لآية وهى تعتذر لها دون صـــوت أو إشـــارة أو همهمة .

- فتحي ماذا بك..؟ هل قال الطبيـــب ماجعلـــك تفعـــل هذا..؟ ولماذا لم تشكر أية على صنيعها أو حتى تسلم عليها .؟

- ....

- إذن أخبرني مابك أنا أمك ، أراك متغيراً منذ مدة مـــاذا بك ..؟

- أمي .. أحب آية ولا استطيع العيش دونها لم أكن أعلـــم أن العشق موجع حين يكون بلا أمل و لم أستشعر يوماً أنه يمكن أن يُمرض حتى الموت .

- بعد الشر عنكَ ياضوء عيني أهذا سبب مرضك ..؟ ليتكَ قلت لي من قبل سأذهب غداً لأخطبها لك .

- كلا .. أعتقد أنها لن توافق .

- لماذا ..؟ هل سيجدون زوجاً خيراً منك ..؟

تخرج أمه ، وهو يدور حول نفسه يحدثها ..

هل ستوافق آية وأضمها كزهرة يانعة في بستاني ، هي النبضة الشاردة من نبضات قلبي ..

آه يا آية لو تعرفين كم أحبك لن تهنأي بالعيش مع سوايَ فأنا سأغزل لك من ضوء عيني ثيابك وستكون نبضات قلبي درجات تصعدين عليها لتصلي إلى أعلى مراتب السعادة.. سأكون كتفاً تبكين فوقه كلا بل لن تعرف الدموع طريقا لعينيك سأكون سداً يقيك سيول الحزن .. آه منك ياغداً أعلم أنك ستتلكأ وتغيب دهراً حتى تجيء إما أن تكون مفتاح سعادتي وإما أن تكون مدية تخترق صدر عمري وسيكون ذكراها هي اليد التي تحرك المدية المغروزة به ولن أجد امرأة بعدها تصلح كضماد ضمادة لجرحك أبداً .

في الصباح ..

- صباح الخير خالتي .. كيف حال فتحي ..؟

- صباح الخير فتحي بخير والحمد لله .. صفاء باركي لآية سأخطبها اليوم لفتحي .

- مب ...... روك.......

ممزوجة مباركتها بدمع يهطل من فضاءات روحها ، تتمنى أن تقتلع رأس أم فتحي التي كانت كالشجرة الخبيثة لاترمـــي سوى بالثمار السامة فقد رأت طفل عشقها يلتهم إحداها وهو يتلوى أمامها يحتضر ...

تهرع لغرفتها ترتمي فوق فراشها وهى تكاد تجـــرح وجـــه الفراش بأظافرها تبكي بكاء مريراً لـــه صـــوت النحيـــب .. تسمعها أمها التي لا تصدق أن ابنتها الـــتي تبكـــي وتـــسأل نفسها....

هل ما أسمعه حقيقة ..؟ صفاء تبكي ..؟ كيف وهى التي لا تعرف وجنتاها طعم الدمع يوما والله أن السماء لتبكي والناس جميعا وصفاء لا .. نعم هى صفاء يا ترى أى ســـبب جعـــل غيمات الحزن تسكن عينيها وتحركها رياح الوجـــع فتـــهطل وكأني بها أول لقاء بين وجنتيها والدموع .؟

- مابكِ وما الذي يبكيكِ ..؟

- لا أبكي ومن يستطيع أن يبكيني ..؟

تمسح صفاء وجنتيها تكاد أن تخلع جلدها مع دموعها .

- مابكِ ..؟

- قلت لكِ لاشيء — بصراخ - اتركيني بمفردي .

تخرج ودموع ابنتها تتقاطر فوق زجاج عقلها وأسئلة تحيرها عن سبب بكاء صفاء .

في زيارة للفرح ببيت سلمى وقلبها ...

- مرحبا أم فتحي .. تفضلي .

تجلس أم فتحي .. تعتدل بجلستها لتلقي خُطبة عمرها.!

- أم آية .. جئتك اليوم لآخذ منك زهرتك وأغلى هدية ؛ فتحي يحبها جدا.

تعرف سلمى القراءة بين السطور.. وتبدأ في تعليق الزينة بروحها تيمناً لعرس تنتظره وتسمع وجدالها يصدح بالغناء سعيداً .

طرقات على الباب يذهب فتحي ليرى من الطارق يُدهش من هذه الزيارة الغير متوقعة.

- صفاء ما الذي أتى بك الآن ..؟ فأنا بمفردي .

- أعلم أنك بمفردك .

- اذهبي ياصفاء فأمي على وشك الحضور من السوق .

- أمك لن تأتي الآن فهى بمنزل آية تخبطها .. هل تظن أنها ستوافق ..؟ أنتَ تضحك على نفسك .. قلت لك أنها عاشقة

لا تحبك وتحب غيرك لماذا ترضى بـالهوان لكرامتـك وهـي تلطخها برفضها .. أما أنا فلو طلبت مني أن ألقي بنفسي مـن السماء وأهوي إلى سبعين أرضاً ماترددت ولافكرت .. هـل تعذبني لأني أهواكَ ..؟ أتعلم لو وافقت آية عليـك سـأقتلها وأقتلك .. قسمابالله سأقتلكما.

تمرع من أمامه عندما تسمع خطوات على الدرج فتأمرهـا بالرحيل دون أن تسمع لها صوتاً.

هناك حيث الفرح الساكن قلبين ويختال فوق لسانهما .

- ماذا قلت يا أم آية .

- والله هدا يوم انتمناه .. بس تجي هي وأبوهـا وناخـد رايهم ونرد عليكي .

- ومتى ستردين علينا ..؟

- قريبا إن شاء الله

صفقة رابحة ألقتها أم فتحي بحجر سلمى بعدما وعدتها بأنهم سيتولون كل شيء حتى ملابسها .

بعودة أم فتحي ترتطم بها صفاء التي تحمل عبوس الدنيا فوق ملامحها وبحر من دموع يتلاطم بعينيها .

- مابك يا ابنتي ..؟

- لاشيء - صارخة - إبتعدي عن طريقي .

تدهش أم فتحي .. لكن سعادتها بما تحمله لفتحي جعلها تغفر ليس لصفاء وحدها بل لكل الدنيا تجهمها .

هناك حيث النور المصلوب أمام عيادة الطبيب ..

من آن لآخر تخرج آية لترى هل أفل قمرها أم مازال ينير عتمة عمرها .؟فيظل هكذا إلى أن يهرب عندما يسمع سعال صلاح .

يعودان إلى البيت ...

- أمك تبتسم خيراً ياآية ..! هناك سراً هو الذي بعث هذه الابتسامة لتسكن وجهها بالرغم من الغربة التي تحياها هناك .

- أبي أمي طيبة القلب ، صرامتها من كثرة ماتحمله وما هي سوى قناع يخفي خلفه قلبها الطيب .





الحادي عشر ..

خطاه

من خطاك إمعاه

سبق خطاك كافاك

بالخطا



- المهم أن أحبه أنا .
- لا البت الشاطرة تاخد اللي يحبها مش اللي تحبه هي .
- من قال لكِ يا أمي أن كل من تزوجت هكذا عاشت سعيدة .؟
- كثير عاشوا.

تحدث آية نفسها ....

وهل أنت سعيدة مع أبي.؟ أكملت عمرك معه لكى تربينا فقط هل تريدين أن تعيدي حلقات مسلسلكِ الهابط بسلمى جديدة وصلاح آخر .؟ ألم تنسكِ تلك الزيجة ملامح السعادة ..؟ لماذا يا أمي تصرين على اعتقال قلبي ونفيه خارج دنيا الفرح ..؟ والله حرام عليكِ .

- سكتي يعني موافقة ..؟
- لا يا أمي لا أريده .
- اصبري يا سلمى إعطها الفرصة لتفكر .
- أبي لا أريد فرصاً ..لا أريده صدقني لا أريده .
- ريت[1] بنتك ..؟ قلت لك هى غاوية .
- اذهبي إلى غرفتك يا آية .

---

[1] رأيت

تفجر سلمى القنبلة في وجه آية التي لم تتستر بساتر يقيهـــا حريقها وحرها .

لحظات صمت رهيبة تمر على الثلاثة ..

كان يتلون الخبر في نفس كل واحد منهم ......

سلمى تحلق بأجنحة من السعادة .. صلاح يدهشة كبر آية حتى إنها تخطب .. أما آية فالخبر كان كالميـــاه القـــذرة الـــتي سكبت على ملابسها يوم العيد..فحاولت بلع لعابها الذي جف داخل حلقها من جراء حرارة الخبر.

- إيش رايك يا صلاح ..؟

- فتحي رجل شهم ولديه صنعة وهو بارع فيها .

تنظر إليهما آية وهي ترى مستقبلها كالكرة التي يتقاذفهـــا الاثنان ويلهوان بها ..فتلقي سلمى الكرة بمرمى آية وتنتظـــر أن تحقق بها هدفاً يسعدهما .

- كلا .. أنا لا أحبه .

- إيش تقولي .. تكرهيه ..؟ ومن قال لك إن كل اللي اتجوزت كانت تحب راجلها قبل الزواج ..؟

- أنا أكرهه .

- اسكتي مش حتلقي خير منه .. أمه قالت أنه يحبك .

تبدأ آية في التذمر والاعتراض تحت قسوة أمها ومحاولاتها المستمرة في السير عكس التيار الجارف لرغبات أمها .. حاولت سلمى بشتى الطرق دفعها إلى الموافقة على هذه الزيجة ليبدأ قلبها وجسدها في بناء حائط أحجاره من ردود أفعال عكسية .

يعترض قلبها وجسدها فتمرض ويهزل قوامها حتى أنها تقيأت مع مرضها آخر فرصة لأمها لنيل موافقة منها .!

يذهب دكتور عيسى إلى المقهى يسأل أبيها عنها فيعرف أنها مريضة

– لماذا لم يخبره أحد ليراها ..؟ قال إنها ترفض الخروج أو العلاج ثم يسرد له حكاية خطبتها ورفضها ..يطلب منه الطبيب أن يتركوها وشأنها .. فيخبره صلاح بأن أمها تراه عريساً مناسبا .. فيقول : ليس شرطاً أن ما تراه أمها تراه هي .. آية عاقلة تعرف ما الذي ينفعها وما يضرها .. هيا بنا لأراها ،فأنا قلق عليها .

يدخلا البيت لقتل ثورة يأجوج .. وقد حمل دكتور عيسى أحجاراً حديدية ليبني لآية حائطاً ويسكب عليه قطر لا يستطيع تسلقه ولا نقبه عريس تكرهه ، ويسد أمام أمها كل محاولات قتلها بمدية هذا الرجل .

- كيف حالك أم آية ، وكيف آية ..؟
- هي مريضة .. لا تاكل لا تكلم .
- ماذا حدث لها لتصل إلى تلك الحالة .؟
- ما إندر عني[1] .؟ فجأة إشتاجعت[2] .

ينظر إليها صلاح وهو يغلق جفناه فوق نظرة خجل لكذب سلمى أمام الطبيب .

تنهض آية من فراشها عندما ترى دكتور عيسى .

- ما هذا؟ لماذا تغلقين النوافذ هكذا ..؟ ماذا بكِ ..؟
- مرحبا .. لماذا أجهدت نفسك بالحضور يـــا دكتـــور ..؟أنا بخير والحمد لله .
- ما أراه الآن لا يقول إنك بخـــير ، أيـــن بـــشاشتك وابتسامتك ؟ أين رحلتا؟ من الذي أعطاهما أمراً بالرحيل ..؟

تبحث آيه بأدراج روحها عن ابتسامة لتضعها فوق شفتيها إرضاءً للطبيب فتبتسم.

- أرأيت كم أنك تضيفين إلى الابتسام جمالاً .. ماذا بكِ بماذا تشعرين ..؟
- جسدي كله يؤلمني أشعر بالألم ولا أستطيع أن أحـــدد الجهة التي يأتي منها ؛كأنه يسري داخل شراييني .

---

[1] لا أدري
[2] مرضت

- هل قلبك سبب آلامك ..؟

ترتبك آية .. تحدث نفسها ....

والله إن قلبي هو الذي يمنحني الحياة التي تريد أمي نحبها.

- آية ابنتي لو عرفت السبب قد أساعدك .

تبكي آية وتترك دموعها تروي وجعها .. فرأى الدكتور سبب شكواها دون أن تحدثه بها .

- أنتِ عاشقة ، العشق يكاد أن يقتلك ليس هذا لأنك ترفضين الشخص الذي تقدم إليك بل جسدك يثور ويعلن رفضه بلغته هو ؛ خشية قتل عشق ساكن قلبكِ .. سأخرج الآن وساحاول مساعدتك قدر استطاعتي ..فتمنحه عناقاً بعينيها لرد جميل زيارته .

- خير يا دكتور .. ايش فيها آية ..؟

- آية ليست بخير تمر بحالة إكتئاب خطيرة ..أرجوكما لا تضغطا عليها أكثر فقد يصيبها إنهيار عصبي يجعلها تفكر في الانتحار .

- إيش انتحار ..؟

- نعم .. إن كانت ترفض الزواج فأتركيها .. فدينكم الحنيف يشترط موافقة العروس على الزواج .

صلاح يقف صامتاً كأنه خلع لسانه قبل أن يـــدخل مـــع الطبيب .

خرج دكتور عيسى وقد دق ناقوس الخطر وعلقـــه أمـــام سلمى لتتذكره كلما فكرت أن تخوض في هذا الموضوع مـــرة أخرى .

للمرة الثانية بعمرها ترفع سلمى راية إستسلامها مرة هنـــا والأخرى كانت يوم وافقت على الزواج من أبيها لتثأر مـــن حميد الحبيب يوم تركها وتزوج بغيرها .

(خطاه من خطاك إمعاه .. سبق خطاك كافاك بالخطا)

لترحل سلمى إلى عالمها الخاص ...

ياله من قلب هذا الذي يسكن جوانحك .!! فعلـــتِ مـــا لم أستطع فعله لكن إياك أن تتخيلي أن هواك أكبر مـــن هـــواى حاولت مرارً وتكرارً رفض الزواج .. لكن جسدي كان أقوى وغروري وكبريائي استطاعوا أن يقفوا أمام ضـــغطهم ..فلـــم أوافق إلا عندما رأيت زوجة حميد وبطنها تنتفخ أمامهـــا مـــن جراء خيانته العلنية لي ..فلو كان على عهـــده معـــي كنـــت سأفضل الموت الحقيقي عن موت مقنع فهو خـــيرلي مـــن وأد نفسي حية بقبر أبيكِ

أما قلبك الذي يتحكم فيك جعلني أتنازل أمـــام ضـــعفك القوي .. أعلم أن الذي حدث لم يكن سببه قـــوة قلبـــك أو

عشقك لكنه قلب الأم الذي يسكنني .. فليذهب فتحي بكل مايملك لتبقى أنتِ لكن إن كنت انتصرت في الجولة الأولى سأصر على الانتصار في الجولة الأخيرة وهذا لا يتأتى إلا بالقضاء على هذا الحب الفقير الذي ما إن تذهب حلاوته لن يبقى منه سوى شظف العيش وأسئلة تفتك بكل لحظاتك .. أين ذهب الحب ..؟ كيف رحل من قلوبنا ..؟ هل قتله الفقر ومثلت بجثته الحاجة ..؟!!

- سلمى أين ذهبتِ ..؟

- هنا .. لكن كنت نفكر إيش حنقول لأم فتحي برفضنا لولدها .؟

- الحمد لله اقتنعت أخيراً .سأبشر آية وأحضرها لتأكل معنا.

يشرق يوم جديد ...

يختلف وقعه على هذا الحيّ النائم .. ثلاثة يقف الفرح على أبوابهم وواحد فقد الفرح طريق بابه فقد كان يتسابق مع الحزن وفاز الحزن وهاهو يطرق الباب لينقض على ساكنيه .

تذهب سلمى إلى بيت فتحي تخبر أمه برفض آيه وهي تتلعثم وتنوح من شعور الخسارة التي تتسبب فيها ابنتها وأيضا لتخبر أم فتحي أن آية ترى فتحي كأخيها .

يرى فتحي أم آية تخرج من بيتهم ليهرع إلى أمه.....

- ما الذي جعلكَ تترك ورشتك وتأتي الآن ..؟

تحتار أمه هل تخبره أم تصبر قليلاً حتى تهدأ ثورة قلبه لعل تأخر الرد يفقده بعض الأمل .

- ألا تريدين إخباري بشيء ..؟!!

- كلا .

- أنا ذاهب .. حضرت فقط كي أطمئن عليك .

يستند على جدار السلم ويبكي بكاءً مريراً حتى أن عتبات السلم شعرت به وحزنت معه فيبتعد عن حي وجعه يصطحب معه عواطفه المجروحة ليدرها ويؤدها ؛لتستوعب العيش بحياة خالية من الحب.

أمه تبكي وجع ابنها وكسر قلبه وتحدث نفسها ..

الفتيات يملأن الدنيا لكنه يحب آية لو أعلم أنها ستوافق لكنت ذهبت أُقبل يدها وأجثو عند قدميها إن كان هذا ثمن سعادته .!

تعود آية إلى عملها .. يقابلها دكتور عيسى فرحاً بعودتها ويخبرها إن الناس كانت تشتكي من غيابها قبل شكواهم بالمرض وهي تشكره لجميله ؛ فلو لم يتدخل لماتت قهراً .

أول المرضى – مريض بالغياب– كل يوم يذهب إلى العيادة لكنه يعود خائباً فطبيبه لم يحضر وما إن يراهـا تـزول كـل أوجاعه وما إن تراه آية تكون ممحاة وجهه قد محت آخر آثـار للوجع بسطور عمرها .

– أين كنتِ ..؟ سمعت أنكِ مريضة أرجوكِ أخبريني أكـاد أموت قلقاً عليك ..؟

– كانت مجرد وعكة ومرت سريعاً .

– الحمد لله .. كدت أموت .. لو تعلمين شعوري آنـذاك .؟ كم أتمنى أن يضاف عمري لعمرك وقلبي لقبـك لتحيـي عمرين ويدق في صدرك قلبان .

يدق جرس الدكتور عيسى لتدخل إليه آية .

– أرحل قبل أن يراك دكتور عيسى .

– كلا إخبريه إني أريده .

– هه .. لماذا..؟ هو لا يعرف شيئاً أرجوك نـور أرحـل الآن.

– لن أرحل إخبريه بوجودي ولا تخافي فوالله سأقتل الخوف إن وقف يوماً ببابك .. أنا أخاف عليك أكثر من عيني .

– أتفضل يابني .. أنا أذكرك أنت المريض المعافى .



الثاني عشر

دموعى عليك دموع

بكا طفل

بوه وأمه موّتوا

- ماذا تريد أيها العاشق .؟ أنا طبيب ولست بشاعر والـــتي أمامي روشتة علاج وليست قصيدة أصف فيها شوق قلبـــك وأنينك لمحبوبتك .

- ما أريده هو أقرب إليكَ مني .

- أتقصد آية ..؟

- هه ..كيف عرفت ..؟

- أنت العاشق الولهان الذي كاد يقضي عشقه على حبيبته عندما فرضت عليها أمها زوجاً آخر فرفضت وكـــاد يـــودي رفضها بحياتها قل ماذا أفعل لكَ ..؟

- أمها ترفضني.. وأعرف أنها تحترمك وسيكون لك تأثيراً عليها إن شاء الله .

- هل تقدمت إليها ..؟

- نعم فعلت ورفضتني بشدة فهـــي تـــرى أني لا أصـــلح لابنتها.

- إعطني فرصة قد أقنع أمها .. أنت تعلم أنها قوية لا تلين بسهولة لكن سأحاول لأجل أعينكم .

يخرج نور ....

وقد امتلأت العيادة بالمرضى الذين دخلوا دون أن تراهم آية ولم تتحدث مع أحد منهم ؛ جسدها كان أمامهم وحواســـها داخل غرفة الطبيب .

- لا تقلقي ياآية .. سيذهب الطبيب إلى أمك ليقنعها بزواجنا .

- ماذا فعلت يانور ..؟ لماذا لم تخبرني ..؟ أمي لا تحب أن يضغط عليها أحداً صدقني صعبت الموضوع وستعاند أكثر .. ستكون شرسة لأبعد ماتتخيل فإن كان هناك ثغرة لموافقتها بزيارة الطبيب هذه ستغلقها في وجه قلبينا إلى الأبد .

- لاحول ولاقوة إلا بالله .. ماذا أفعل معها ..؟ هل أقتلها لنستريح ..؟

- هل جننت كيف تتحدث هكذا عن أمي ..؟ أذهب أرجوك .(بغضب)

تكمل آية عملها دون أن تنظر بعين الدكتور تتمنى أن تصرخ فيه بألا يستمع لحديث نور فهو بهذا يعجل بحكم الإعدام لعشقهما .

تمر ع صفاء عندما ترى فتحي لكنها تترعج حين تراه ؛فهو أصبح لا يحمل من البشر سوى جسد يشبههم كأنه خالي من الداخل.. تحدثه تشعر لو انفجرت بجواره قنبلة فتنتفض الدنيا وهو لايحرك ساكناً كأنه أتى من عالم آخر أو ميتا ضل قبره .

تبكي وهي تحمل قلبها وتعتصره علها تستطيع أن تسكب منه هذا العشق الذي كان سبباً في عذابها .

تقسم على النيّل من آية مهما كلفها هذا ؛ فقد ذبحت حبيبها بمنتهى القسوة بالرغم من عشقه لها كانت تتمنى أن تنال منه أى شيء تبقى منها. وبمنتهى الغل :

- سأنتقم منك يا آية ، لن تهنأي بغرامك سأذيقكما المر كما تجرعناه أنا وفتحي على يديك .

تمر أمام الورشة ....

فلا يراها فتحي تتحدث مع أحد الصبية يخبرها بأن كثير من الزبائن قد هجر المكان وترك العمل وجميع الصبيان رحلوا عداه .. فتطلب منه أن يراعي معلمه حتى يستعيد نشاطه ويذهب سقمه .

تسير باكية وهى تتخطى أطلال غرامها الذي دكته آية بمعولها .

هاهو فتحي كالسيجارة التي اشتعلت وأمتصت آية روحها وألقتها مشتعلة لتدهسها صفاء بقدميها الحافيتين فتحترق بها .

تنهي آية العمل بالعيادة .. يناديها الدكتور بألا تذهب فهو سيصطحبها إلى المترل .

يأتي أباها فيذهب ثلاثتهم .. تشعر بأنهما يجذبانها من رأسها يضعاها عند قدم الجزار والطبيب بيده السكين التي ستذبح بها .

يدخلان ويخبران سلمى بحضور الطبيب معهما لأنه يريدها في كلمتين.

- خير يادكتور .؟ آية دارت[٢١٤] شي زعلك منها ..؟ والله لو دارت شي قتلتا توا[٢١٥] قدامك.؟

- هل يصدر من آية شـيئاً والله مـا رأيـت في أدبهـا وأخلاقها.؟

تعتدل سلمى بجلستها فخراً وزهواً بتربيتها ..تنظر لـصلاح بنظرات انتصار كأنها تقول له أرأيت أنا من ربّي وما أنت إلا خيال للمآته زرعته بغيط عمرنا .

آية بالمطبخ تتلو شهادتها أستعدادا للـذبح وقـد وضـعت الشاي ونسيت أن تشعل تحته النار فيكفي النار التي تندلع فيها. أم آية جئتك متوسطاً لشاب يريد الزواج بآية .

- ليش هذا يوم تتمناه كل أم لبنتها .

- لأنه يحتاج لبعض الوقت ليقوم بتجهيز تكاليف الزواج .

- من هو ياترى ..؟

تسترق آية السمع وقبل أن يلفظ الطبيب باسمه كانت تلفظ روحها وقد وقفت على أبواب عمرها استعدادا للفـرار دون عودة .

---

[٢١٤] فعلت
[٢١٥] الآن

- إنه جاركم نور.

تنتفض سلمى من مجلسها وكأنه ألقى على ملابسها قطعة فحم مشتعلة .

- نـــــور ..نور هذا فاشل ؛ مايشتغل ومامعه تكـــاليف الزواج .. حتى دبلة مايقدر يشريها.

- لكنه يحبها، أعتقد أنها تبادله نفس المشاعر .

- بنتي لا تعرف الغية .

تغضب سلمى وينتحر هدوؤها فجأة عندما محا الطبيب كل ماقاله عن حسن تربيتها وأدبها .

تشتاط غيظاً عندما تعلم أنه ذهب لمقابلة الطبيب بالعيـــادة وقد خمنت بأنهما يتقابلا هناك. ..احساسها بالخديعة جعلـــها أكثر إصرارً على قتل هذا الحب بكل ماتمتلكه من أسلحة .

يخرج الطبيب يصطحب معه شيئان وعداً منـــها بـــالتفكير والصبر على هذين العاشقين .. لتشمر سلمى عن ســـاعديها للنيّل منهما .

يطلب منها صلاح التريث محاولاً إقناعها بأن آية لا تعرف ماحدث بينه وبين الطبيب ..وهي على يقين بأن آيـــة تعلـــم بخيوط اللعبة أو قد تكون هي من صاغها فهـــو قـــد ألتقـــى بالطبيب بعيادة العشق.

تمر ليلة شديدة الحلكة ..سلمى تقف على حلبة نحر آية تنتظر رؤية هذا المشهد الدموي وآية لم يزرها النوم أو حتى أرسل لها غفوة لتريحها قليلاً .

سلمى تتململ بفراشها تجهز أدوات الذبح وتتلوا تعاويذ الإنتقام.

يفر صلاح من أرض الموقعة قبل الحرب حتى لا يكون مشاركاً فيها ولو بسلاح صمته القاتل .

– أبي ألن تفطر ..؟

– كلا .. تأخرت عن عملي .

– هل بإمكانك أن تتغيب اليوم .؟

– كلا اليوم بالذات عندنا جرد ولا أستطيع التأخير .

يخرج مسرعاً وهو يدعو لآية بالثبات والقدرة على التحمل وسلمى بالهداية والروية .

قبل أن يغلق الباب تشرأب منه عنق ظلم وحقد أتت وبيدها جمرة تلقيها بفراش آية .

– منّ صفاء ..؟ مالذي أتى بك اليوم ..؟

– أين خالتي..؟

– ماذا تريدين منها ..؟ أرجوكِ ياصفاء أمي اليوم غاضبة ولن تتحمل سماع أى شيء.

- وهذا الذي أريده أين هي ..؟

- آية من بالباب ..؟

- أنا ياخالتي ......صفاء .

تدفع آية كطوفان لا يعرف الرحمة وآية تصدها بيد الخوف والرعب مما تحمله في جعبة غلها .

وبادهاش رُسم فوق ملامح وجهها :

- خير ياصفاء .. خِشي[٢١٦] .

- خالتي جئت أخبرك بما يدور وراء ظهرك آية على علاقة بنور يتقابلان خلسة ويذهب لها بالعيادة حتى صـــارا حـــديث الناس بالمنطقة .

تتساقط دموع آية كشلالات الخوف فتنهمر إنهمارا .

- صفاء أنتِ غاوية في نور ..؟

- من نور هذا الفاشل حتى أحبه..؟ إنه لا يعمل ولا يملك أن يوفر حياة نصف كريمة لمن يحبها .. لست ساذجة كابنتك فأنا أعرف مصلحتي ولا أنساق خلف عشق فاســـد ســـيودي بسمعتي وحياتي.

---

[٢١٦] ادخلي

تموت قدما آية فلا تستطيع الحركة بعدما استعجلت صـــفاء إنفجار بركان أمها الذي كان يفور قبل حـــضورها وهـــاهي تستعد لتحترق بحمم لا تعرف رحمة .

تخرج صفاء بعدما رمت آية بنظرة تسبح فيها كلمات :

اشربي يا آية جزاء ما فعلته بفتحي والله هذا قليل عما أتمناه لكِ ليتني أستطيع أن أمزقك بيدي وأن أنبش لحمك بأظافري .

تستعد سلمى لرقصة النار وهاهي تميـــل فـــوق رأس آيـــة جمرات غضبها فيجأر الأسد الساكن عرين صدرها ويـــنقض على فريسته.

- آيــــة.



الثالث عشر



ما ريت

فيهن حلو بعد عزيز

الأيام حنضلن



- إيش إتريدي ..؟ إتريدي تفضيحنا .؟

- لم أفعل شيئاً يا أمي.. أقسم لكِ .

- تتقابلو في العيادة من وراىَّ ..؟

- أقسم لك ياأمي لم يأت العيادة سوى مرتين مرة حين كان مريضاً والأخرى يوم قابل الدكتور عيسى .

- تتحديني والله أقتلك بيدي قبل مانكون ضحكة في أفواه الخلق .

يخرج الأسد من عرين روحها جائعاً ليجد أمامه غزالاً رقيقاً مجهداً ولن يبذل جهداً في إلتهامه .

تضرب آية ضرباً مبرحاً حتى أن الدماء فرت خوفاً من عصاها ، لم تشفع رؤية دماؤها تنفجر بل ظلت تضربها حتى سقطت العصى من فرط إرهاقها ، آية تتلقى الضرب كشجرة يجتثوها فتبكي دون أن تنبس بحرف ولا أدنى إعتراض .. لكنها كانت تقول وهي بدوامة الوجع:

أرجوكِ كفى يا أمي لا أريدك أن تجهدي نفسك ..وهي كقطعة القماش التي تضرب بها سلمى الهواء ..وإخوتها يصرخون وكل من يتدخل يلقى ضربة من عصاها القاسية التي لا تعرف الرحمة .

تسقط آية من فرط التعب فتبكي وهي ترى أمها أجهدت سلمى تبكي بكاءً حاراً وهي تضرب صديقة عمرها وحبيبة قلبها ..فتقع سلمى فاقدة لوعيها وأمومتها دفعة واحدة .

الجميع يبكون وهم يروا أمهم جثـــة هامـــدة لا تتحـــرك فتصرخ آية في إخوتها .

- أمي .. أحضروا كوب ماء سامحيني والله لن أفعل ألا ما تريدين .. ليس لنا غيرك ياأمي .. أرجوك إخوتي بحاجة إليكِ .

تفيق سلمى التي فقدت وعيها وهي ترى دماء آية تـــسيل ؛ فتفر ثورتها من غرفة أمومتها وتنهار باكية لتتساقط دموع آيـــة ودمائها على وجه أمها ..فتحتضنها وتلعق بيدها دم حبيبتـــها وتتمنى أن تقطع اليد التي فعلت هذا بها .!!

تحدث سلمى نفسها وهي تطرد أشباح ثورتها :

أحبك يا آية أنت وإخوتك .. أنتم ماسات عمري مكانكم علبة قلبي القطيفة احفيكم من الرعاع حتى لا يسرقوها مني مـــا أفعله هو الخوف والحفاظ عليكم صدقيني .

تنظر لآية بنظرة تموج بين طلب الغفران وبين سؤال عمـــا ستفعله بعد ماحدث .

- أمي .. لن أفعل إلا ما تأمريني به .. سأترك نـــور ولـــن أحدثه مرة أخرى .

يدخل صلاح يتلصص كالفأر المذعور الذي يخاف المصيدة .

يرى سلمى تظهر عليها علامات الإعياء الشديد فـــتجحظ عينه بحثاً عنها.

- أين آية ..؟ ماذا فعلت بها ..؟ آية .

- أنا هنا يا أبي .

- هل جرحتِ ..؟ ماهذه الدماء ..؟

يهرع إليها يجمع وجعها بأحضانه الخاوية إلا من بقايا حنان يحتضر خنقته أمها بجبروتها .

تدفن نفسها بصدره باكية دون دموع تحدث نفسها ..

والله يا أبي إن جرح قلبي الذي لا تراه أعظم وأعمق من جرح جسدي فهذا يلتئم بمرور الأيام لكن جرح قلبي لن يلتئم مهما مرت عليه الأيام والسنون ...

يهمس لها ....

- آية أمك تحبك و مافعلته كان خوفاً عليك .

تتقافز دموعه فيأسرها بأقفاص أهدابه حتى لا تفر أمام آيسة فيزيد وجعها بها .

فتحي يعود رويداً لطبيعته ومزاولة عمله بعدما أدمن بُعد آية عنه وقد استسلم للأمر الواقع حتى وإن تأوه قلبه فقد اعتاد تأوهه وماهي إلا نوبة اشتياق لإدمانه .. يمر الآن بحالة الشفاء القاسية محاولا تخليص قلبه وجسده من عشقها .

تمر صفاء تلقي عليه التحية فيجيبها بحروف معبأة بجفاء ولا مبالاة وحتى تحصل على بعض اهتمامه تقترب وتهمس له :

- ألم تر ماحدث لحبيبة قلبك .

ينتفض وكأن خنجراً اخترق صدره وشق قلبه نصفين .

- ماذا حدث لها ..؟ تكلمي .

- مالي أراكَ فزعت هكذا أمازلت تهواها ..؟

- لم يعد للهوى مكاناً بقلبي ماذا حدث إما أن تتكلمي أو أرحلي وأتركيني فلم أعد أحتمل سُخريتك .

- أخذت بثأرك من الملعونة .

- ماذا فعلتِ يامجنونة..؟ وأيَّ ثأر لي عند آية ..؟

- لك ولي عندها ثأراً .. أتسألني ماذا فعلت بكَ ..؟ ذبحت قلبك وكادت تذهب بعقلك وشيت بها لأمهـا بعـشقها .. فضربتها حتى شجت رأسها وأضفت ألوان العذاب على وجهها الجميل الذي جعلها حبيسة غرفتها حتى لا يراها الناس .

تبكي روحه من فرط وجعه وهو يحسُ أن مـشاعره الـتي شُجت وليس رأسها .

ويحدث نفسه ..

فداك قلبي وعقلي يا آية .. والله لو أملك ماسمحت لأحـداً أن يؤذيك لو كنت قريباً منك لجعلت من روحي درعاً يحميك ليتني كنت مكانك.. أما أنت ياسوداء القلب أى حب تُكنينـه

لي و لم يُطهر الحب قلبك أتتخيلين أن آلام آية تسعدني ..؟ سحقاً لك والله أن مايسعدها يسعدني حتى وإن كان سعادتها في بعدها عني .. أما أنت فلو كنت آخر بنات الدنيا فأنا أفضل الوحدة عنك .

كانت تنظر إليه بسعادة بوهيمية بعدما نجحت في مهمتها وتنتظر أن يكافأها على مافعلت .. تكمل منظومة التشفي :

- كنت أتمنى أن تراها ؛ كانت ستبرأ جروحك .

- إرحلي من هنا قبل أن أقذفك بمفتاح أشج به رأسك .. صارخا ..اذهبي.

فرت من أمامه وهي ترى صدق حديثه عندما رفع أمامها المفتاح الذي طار خلفها يصر على النيّل منها .

تلتفت إليه وهي تجري ساخرة غاضبة ..

- خير تفعل شراً تجد .! ماذا أفعل لأرضيك ..؟ كل ما فعلته أفعله لأقترب منك لكن من الواضح أن مافعلته آية بك قد أذهب عقلك فعلاً .. يامجنون آية .

آية أسيرة المحبسين قلبها وجسدها تتلقى عزاء مشاعرها في هذا الذي يحتضر أمامها ولا سبيل لمداواته .

نور يقاسي نيران شوقه وخوفه على حبيبته ينتظر أن يراها أوحتى يطمئن عليها كلما مر أمام النافذة ولمح طيفها فيجدها

تغلق النافذة في وجه قلبه بإصرار أرعبه وجعله يفكر ماذا فعـل معها وهو العاشق لثراها .؟ يرسل إليها ليطمئن عليها فيعـود الرسول بأن يبتعد عنها خيراً لهما .

بات الليالي الطوال يشقى بأوجاعه وآلامه وظنونه عن الذي غير قلبها عنه و لم يجد مفر إلا الذهاب لأبيها بالمقهى ....

- عم صلاح .. أين آية

- ماذا تريد منها .؟

- أين هي وماذا فعلت بها أمها ..؟ ماذا فعلنا لكـم حـتى تمزقونا وتقتلونا ماذا فعلت آية لتضربوها وتسجنوها وترغموها على البعد عني ..؟

- كفى مادخلكَ أنتَ بها .. ابنتنا ونفعل مانراه بمصلحتها .

- هل مصلحتها في بعدها عني وتعذيبـها وضـربها حـد الموت..؟

- ماذا فعلت أنت حتى تقيها العذاب الذي تتحدث عنه .؟ قبل أن تلومنا صوّب أصابع اللوم لنفسك ..عشقتها وماذا بعد العشق ..؟ هل ستأكلون وتلبسون عشقاً ..؟ أنت من يعـذبها ليتك تحاسب نفسك أولاً واسألها ماذا فعلت لآية ..؟ كفى إن كنت تحبها أبتعد عنها وأجعلها تنسَاك .

يرحل بعدما شعر أن كلام أبيها كقطعة القمـاش المبللـة كممت فمه فرحل قبل أن يختنق ويموت أمامه.

يحدث نفسه ..

أتتخيل أنك أقنعتني .؟ بالرغم من أن كلامك هو عين العقل لكن النار المتأججة داخل صدري من جُل خوفي وشوقي إليها كفيلة بحرق كل شيء حتى ورق إقتناعي ..ليصبح أكثر تشبثاً بها .

يقترب من نافذتها المغلقة يكفيه أن يسمع صوت أنفاسها ويفسر صمتها الصارخ بشوقها إليه .

غيابها يأكل شبابه ويلتهم تفاصيل روحه فتنطفيء الأضواء ليقترب من النافذة يطرقها بأنامل مشاعره ..

تفزع آية كأن أصابعه ديناميت ينفجر على عتبات قلبها و لم تفلح كل محاولاتها .. دفن رأسها تحت وسادتها أو أن تميل على رأسها الأغطية ؛ لتَصدُق في وعدها لأمها تنظر حولها ترى هل استيقظ أحد على صوت تلك الطرقات المدوية .

ينادي عليها نور بصوت حنون يغتال كل محاولات ثباتها ..

- آية .. حبيبتي ، أعلم أنك تسمعيني قلبي يتمزق أرحموك ضاع النوم من عيني والصبر من روحي ، أين أنت .. ألا تشفقين على قلبي الذي أحبك ومشاعري التي تذوب من حرارة شوقي إليك.؟

تغلق آية أذنيها بأقفال يديها ، لكن أين تذهب وحديثه يخترق صدرها نافذاً إلى قلبها الذي رق ويتصارع مع

إصرارها..؟ وهو يتحدث ويتحدث وحديثـــة كالنـــار تلفـــح مشاعرها تمد يدها على المزلاج وهى تعرف أنها لن تفتح النافذة لترى منها نور فقط ؛ بل لتندفع نحو قاربها الضعيف تيـــارات غضب أمها.

هدأ وهو يسمع النافذة تفتح كأنه غابة تحترق وأطفأهـــا الله بعطر رؤيتها.

– آية أين أنتِ أفتقدك ....

تقاطعة قبل أن يكمل وهي تخفي بعض وجهها حتى لا يرى خسائر أول حربهما والتي استحوذت بها لنفسها دونه ....

– مالذي أتى بك الآن أرحل قبل أن تستيقظ أمـــي .. لا تعرف ماذا ستفعل بي لورأتكَ ..؟

– علمت و لم أصدق ألهذا الحد هي قاسية .

– (بغضب) لا تقل هذا .. ليس هناك قلباً أحـــن مـــن قلبها.. طلبت منك ألا تتحدث عنها هكذا .

– لكِ ما تريدين لكن أين كنتِ ، لماذا تهربين من رؤيتي..؟

– عاهدت أمي ألا أراك أو أكلمك.

– وهل استرحت ببعدك عني ..؟

– كلا .. هه . نعم

- قلت كلا !!
- أنها زلة لسان.
- كلا ..أنها زلة قلب ؛فليس لنا غنى عن بعضنا .
- لا داعي لهذا الحديث فقد وعدت أمي.
- أذن لنهرب ونتزوج .
- ماذا تقول أتريد أن أجلب الفضيحة والعار لهم.
- ماذا تريدين أنت..؟ أرهقني حبك .
- نبتعد قليلاً حتى تهدأ أمي لعلها ترضى عنا .
- كما ترين سأرحل الآن وأنا استطيع النوم بعدما اطمأننت عليك وعلى أني مازلت بقلبك و لم أبرحه أبدا ..آية لا عيش لي بدونك .

تدخل آية بعدما روى أرضها بشادوف حبه وقد حاولت أمها جرف عشقها بعدما كانت مشاعرها على وشك البوار .

تمر صفاء أمام آية ترمقها بنظرة كلها غل وتشفٍّ .

لكن آية وبرغم حزنها ووجع العمر لا ترد عليها فهي تعرف أن تلك الفتاة مريضة نفسيا فترمقها بنظرة تقرأها صفاء جيداً فتشتاظ غيظاً ولترد طعنات نظرتها تقول :

- آية خطبتي الخميس القادم لكنك لست مدعوة .

- من العريس أهو فتحي ..؟

تغلق صفاء الممر الذي بين حاجبيها فقد استطاعت آيـــة أن تخمد ثورة النصر وتجعلها تبكي بثانية واحدة عمراً من دمع.!

- كلا تركتُ لكِ هذا المخبول لتلعبي به كما تشائين .

- من أين لك هذا الكرم .. تحبينه ولتبلغي حلمـــك معـــه كدت تلعقين حذاءه ..؟

- أتسخرين مني واضح أن عقاب أمك لم يكـــن كافيـــاً.. أنتهي من مراسم خطبتي وأعود لأنتقم منك علــى ســـخريتك هذه.

- فليكن الله في عون خطيبك فهو لايعلم من سيتزوج.؟

- خطيبي رجل ذو مال وجاه وليس كالمتسول الذي تحبيه .

- يكفيني قلبه وحبه .

تفر صفاء من أمامها كما تفر النار من المياه عدوها اللـــدود وبرغم أنها أهون الأحياء إلا أنها القادرة على قتلها .

سلمى تقف أمام النافذة ترى الرجـــال ينـــصبون ســـرادق خطبة صفاء وأفرع الأضواء والأطفال يلعبون بألوانها فيأخـــذها المشهد - لليلة قديمة - شهدت فيها أطلال حزن مازالت شامخة بعمرها....

فترى عترتها تلهو حول الأشجار التي أعلنت الذبول والموت من جفاف أحاط بها .. ترى الحزن يزحف باتجاهها يتسلق أفرع روحها وهي التي فقدت الحبيب وقد تزوج ليلة أمس ومازالت بقايا فرحه لم يتخلص منها النجع ، مازلت الأضواء معلقة لكنها نعست بعدما أرهقها السهر .

فتهمس ....

(ماريت فيهن حلو .. بعد عزيز الأيام حنضلن)[217]

هل نسيتني .؟ هل رأيتني فيها ..؟ هل قبلتها ومنحتها ماكنت تدخره لي وحدي ..؟ هل أنت من نزع ثوب زفافها..؟ هل لعقت انفاسها ، هل نمتَ إلى جوراها .؟

أهنتُ عليك ..؟ كلا أعلم أنني لم ولن أهون عليك أبداً أعرف أنك لم تدخل خدرها و لم تلمسها ، لم تمنحها بعضك أو كلك بل خرجت وهمت على وجهك وحيداً تستنجد بالنجوم والقمر والليل أن تمر تلك اللحظات القاتلة التي اغتالت قلبينا والتي فقدتَ فيها قاربي واضطررت لأن تستقل قارباً لا تعرفه و لم تحن يوماً لمجدافه ..وبوصلته لا تشير أبدا إلى شواطىء سعادتك ..ألم تقل أنك لي وحدي .. وحدي فقط دونما النساء هل كنت تخدعني .؟ أم أنت كباقي الرجال يحتاج لجسد أي

[217] لم أر فيهم يوماً حلواً.. بعد الحبيب الأيام أصحبت كالحنظل.

جسد لتهطل به غيمة شهوته ..؟ كلا أنت لست مثلهم بل أنتَ روح قلبي ونور العين .

يغيب حميد أياماً ولم يظهر .. لم تعتد غيابه هذا ولا أحداً يأتي حاملاً منه أي خبر يريحها ، بين شوقها وبين فرحتها في تلك العروس التي لم تذق الفرح مع حبيبها فهو حتى وإن تزوجها مايزال يحمل قلبا يهواها .. أبداً لن يكون لها يوماً ولن تمتلكه أبد الدهر لكنه أختفى شهرا.. ياترى ماسر اختفاؤه أهرب وترك النجع ليفر منها .؟

- سلمى .. وينك ياخيتي .

- تعال نا هنا يارقية .

- شفتي حميد ،..؟خالتي فاطمة كانت تزورهم وقالت أنه فرحان ووجه كيف البدر يوم تمامه.

- معقول .. إيش تقولي .

- لا ..ومَرته حامل .

جنين آخر يحتضر بقلبها زرعته تلك الأخبار أبيه حميد لكنه تبرأ منه ولم يعترف ببنوته .

- الله يسعده .

- بالسهولة ينساك وينسى غلاك .

- نا قلت له قبل مايتزوج ينساني ويعيش حياته .

وهمس لنفسها ....

(إنسيهم بعد نسيوك .. واشقي بكبر نيران غيرهم)[٢١٨]

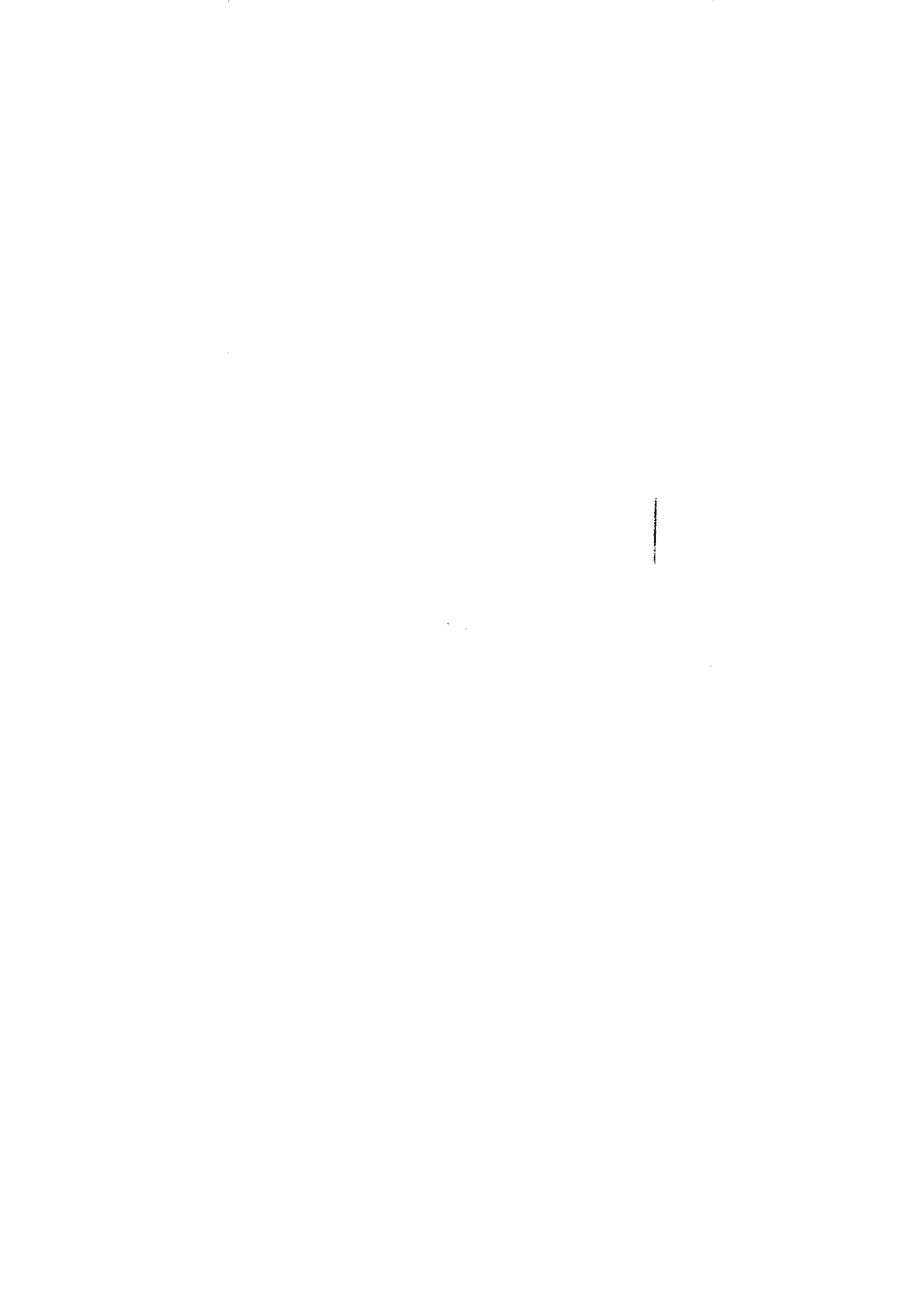
ترحل من أمام أختها وهي تجمع محصول عشقها من فــوق أغصان خيانته وغدره.

---

[٢١٨] انسيهم بعدما نسوك واشقي بنار غيرهم



الرابع عشر



تمنيتي خلا

وأوهام رحل عزيز

ياعين سايبك

تسمع آية مكبرات الصوت وتدخل أضـــواء المـــصابيح إلى غرفتها عنوة .. تنظر خلسة من خلف النافذة ترى العـــروس التي مهما غطت وجهها بمساحيق وأصـــباغ يظهـــر وجههـــا الحقيقي أسوداً حقوداً .. حتى لحظات الفرح لديـــه القـــدرة العجيبة على قتلها .

صفاء روحها معلقة بنافذتين مغلقتين يحتكـــران لحظـــات فرحها ويصادران حلمها وكأنهما قد أتفقا على ألا يريحاها .

تحدث نفسها .....

أين أنت ..؟ لماذا لا تخرجين لرؤيتي حتى أهدأ .. ؟ فعلـــت مافعلته فقطَ لأغيظك ، هذا المبتسم الذي يجلس بجواري يمسك يدي وأنا لا أعرفه ولَا أدري لماذا لا أحـــب النظـــر لوجهـــه الباسم.؟ ماسر سعادته ياترى .؟ أضحك كما تـــشاء تتخيـــل أنك اشتريتني بقطعة معدنية لامعة وفستان غبي ليتني أمزقه فلم أرتده لتراني أنت أو الحاضرون لكني ارتديته لها ولكنها أبت أن تراه .

وهذا الآخر الذي أردت أن أجعله يندم لأنه افتقدني حـــتى هو لم يعبأ بي أحببت أن أكيدهما فكدت نفسي كم أنا غبية .!

يمسك الخطيب يدها ويجذبها فيقتلعها من غفوتها ؛لتنـــهره بعينيها فتجذب يديها حتى أن تصرفها هذا أدهـــشه فـــسرقت

الابتسامة من فوق شفاهه فظل صامتاً حتى أنتهت تلك الليلـــة التي مُلأت بمصابيح فقدت ثقافة الضوء .

بنهاية الليلة يجمع الرجال المصابيح العمياء ويخلعون الرجال قماش السرادق الذي مازال يعيش ويذكر آخر ليلـــة باكيـــة نُصب فيها وقد فقد طعم الفرح ..أما صفاء كانت تذرف دمع حزن ألف عين.

– آية ..يقولوا عريس صفاء غني عنده خـــير واجـــد ربي يعطيك عريس كيفه .

لم تجبها آية فهي لا تحلم بشراء بيت وجَيّب لكنها تحلم بشراء قلب ووجدان وروح .

ونور الذي بدأ يخبو نوره حزناً وشوقاً لآيته الوحيدة بكتاب قلبه المقدس ..يقطع أشواطاً دامية وهو يمر أمام بيتهم عله يحظى برؤيتها .

بات يتهجد فمجرد ترديده لاسمها بينه وبين نفسه يـــأتنس من وحشة غيابها يشعر أنه صائمٌ عمراً ينتظر إنطلاق وجههـــا ليفطر على تمر نبضها .

أرسل لها طالباً أن يراها وإلا سيفقد عقله قريباً ويفعل مالا يحمد عقباه .

– فتحي .. لماذا لم تحضر خطبتي .

- كنت مشغولاً .

- هل حزنت عندما علمت بخطبتي ..؟

- ولماذا أحزن ..؟

- إلى متى ستتجاهل وجودي كأنك لا تراني ولاتسمعني صدقني أحببت الحياة لأنكَ فيها وصرت أحزن على أيامي التي تمر ولا تشاركني لحظاتها .

- ماذا تقولين ..؟ أمازلتِ تتوهمين عشقي ..؟ لقد أرتبطتِ برجل ويجب أن تحترمي غيابه .

- أتوهم عشقك ..؟ لماذا تصر على السخرية مني ومن مشاعري والآخر .. أي آخر ..؟ لا أريده .. بصدري قلب واحد تملتكه أنتَ ولايوجد مكاناً لغيرك .

- احترمي الخاتم الذي بإصبعكِ .

- حرام عليك أراه ثعبان يلتف حول إصبعي .

- لماذا وافقت على خطبته إذن ..؟

- قلت لعلها تدخل الغيرة في نفسك.. لو قلت لي أريدك سأخلع هذا الخاتم الآن ؛ فأنت عندي كل رجال الأرض .

- أرحلي رجاء قبل أن يراكِ أحد ويخبر خطيبك وتحدث مشاكل أنتِ في غنى عنها .

- ليحدث مايحدث فلحظة معك تساوي عمري كله .

- ألم تقولي أن لك قلباً واحداً ..؟ فأنا مثلــك لا أمتلــك سوى قلبٍ واحدٍ يفيض حزناً ولا مكان لآخر .

- أمازلت تحبها ألا تنساها وهي التي أهملت مشاعرك .؟

- إذا كان هذا سيريحك ..؟ نعم أحبها ولن أنساها وقــد نذرتُ العمر لها ولن تشاركها أخرى فيه ؟

- ستظل عبداً لها .. لكنك عبد ذليل واقف على بابها تنتظر منها كلمة عطف أو نظرة إحسان، كم يشفي غليلي ظمــأك الدائم لها وهي تقصيكَ بعيداً عن ينبوعها .

هرع من أمامه بعدما مزق كل أوراق حنينها إليه .تحــدث نفسها ...

ماهذا الحب الذي جعل الحلو مراً ..؟ جعلني أتنازل عــن كرامتي أمامه كأنه مخدر يخدرني فأذهب في غيبوبة عشق تنسيني نفسي والناس .. من أنت حتى تأمرني فــأطيع ..؟ تــدعوني فأستجيب .؟ تنازلت عن عمري لأحصل على لحظة سعادة .. لكن هيهات أن أجد فيك هنائي ، لماذا جعلت قلبي مسكناً له وأسكنته إحساسي ..؟لماذا لم تترلني بقلبه ..؟ أأنت واحــداً أم مائة أم مليون .. تغزو القلوب في آن واحد ..؟ والله لو أعرف

لك عنواناً لاغتلتك .لماذا جعلتني أعـــشقه وجعلتـــه يعـــشق غيري..؟ تباً لكَ فلا يأتي من ورائك سوى الشقاء والألم ليتك ترحل عن عالمنا ولا تعود فنعيش بلا مشاعر ولا يكون شخصاً لا نعرفه رئة لعمرنا ونصبح بعده كالجذوع الخاوية .

– أمي أريد أن أذهب إلى خالتي .

– روحي ولا تتوخري .

– أسماء .

– نعم أبلة آية . اذهبي واحضري لي مقبضاً لشعري مـــن المحل القريب .

– حاضر ..

تقترب منها هامسة أن تمر على نور ليكون في انتظارها.

تعود أسماء تحمل بيديها مقبض شعرها وبـــالأخرى خـــبر السعادة فتفهم آية صمتها وتـــتـــزين بالسعادة وترتدي قـــرط الفرح وترقص على لحن لقائه .

نور .. يفرغ دولاب ملابسه لا يجد مايرتديه لهذه المناســبة السعيدة وكأنه يوم عرسه .!

يراها من بعيد ترتدي ثوب زفافها وقد زادته جمالاً ؛ كأن الثوب يختال فخراً بعروسه التي لم ير أجمل منها ، سمع صـــوت

التصفيق وعزف الخطوات فوق أوتار الأرض والأضواء تشدو والمدعوين تكاد الفرحة أن تودي بعقولهم فلم تر الدنيا أجمـــل منه – منها وكأنهما البدر والشمس أجتمعا معاً.

تربت آية على كتفه وهو غارق في عرسهما ..

تتلامس أيديهما والصمت ترك الحديث لرجفـــة اللمـــسة ولهيب الهمسة ليكملا الحوار ووقف الصمت سعيداً يـــسترق السمع لنبضات عشقهما .

– كيف حالك حبيبتي ..؟ اليوم عيد وقد باغت دنيتي فجأة وأنا من انتظرته عمراً .

– بل عيدي أنا .

– كم اشتقت إليكِ .. خفت أن آتيك ليلاً حتى لا أحنث بوعدي معك فتغضبي ..ليتكِ تعلمين أنك مائي وهوائي أرضي وسمائي .

– انظر الأشجار صَمَت حفيفها ؛ لتسمعنا كأنها تتعلم منا العشق ، يهيأ لي أنها أزهرت على الأغصان قلوباً بدل الأوراق.

– أنت الحب لو تجسد في أنثى وكل معاني العشق تتجسد في قلبك ووجدانك .

يقطع شريان حديثهما الذي تتدفق فيه دماء الحنين شــبحٌ يأتي من بعيد ليتصبب العرق من جبين آية من الخوف حتى كاد يغشى عليها .

- السلام عليكم .

يلقي السلام عليهما وروحه تسيل من ثقوب قلبـــه وقـــد اضطربت مشاعره فلم يجد لها معنى واحداً فقد مزجت بالحزن والغيرة والشوق والحنين.!

- وعليكم السلام .. مرحباً فتحي .

- الحمد لله كيف حالك يا آية ..؟

الصمت يقيد حروفها ويأسرها الخجل فـــلا تـــستطيع رد سلامه بل أدرات وجهها.

- نور أريدك برهة .

يتنحيان بعيداً عن آية ..

- ماذا تفعل ..؟ ألا تخشى عليها من كلام النـــاس ..؟ ألا تحبها ..؟

- نعم أحبها .. بل وأعشق الثرى الذي يُقبل قدميها .

يجيبه فتحي – بصمته – والله لو بت عمرين فوق عمرك ما عشقتها حجم عشقي، لها لكن الدنيا لا تمنحنا كل ما نريد .

– إنها آية يانور .!

كادت تفلت منه كلمات عشق في خريف غرامه تسقطها رياح اليأس التي قطعت كل آماله للفوز بقلبها أو حتى بنظرة عشق واحدة منها يعيش بها باقي عمره .فاستدرك وقال:

– آية كأختنا .. إن كنت تحبها فحافظ على سمعتها من ألسنة الناس .

– معكَ حق .. أنا كنت فقط أطمئن عليها .

تنظر إليهما آية .....

هاهما العاشقان، وتتعجب من الزمان ..فأحدهما يملك قلبها ومشاعرها والآخر يملك ما يجعل هذا الحب يرى النور ..فلماذا لم يتحدا في شخص واحد وتنتهي كل مشاكلنا .

يذهب فتحي وقلبه يتسمر أمامها لا يريد أن يبرح الأرض التي تنعم بوقوفها عليها .

– هيا يا آية عودي إلى البيت .

– أخشى أن يخبر فتحي أمي .

- لا تخافي فهو كان يوصيني عليكِ .أذهبي قبـــل أن يرانـــا أحد.

شبح آخر أكثر حقداً وشراسة يرى تلك المشاهد التي تزيد حقده وغله .. يراها تفاحة غضة يقف أمامها أثنان جائعـــان يتمناها كل منهما لتسد رمق مشاعره وهى الثمرة التي تعـــاني العطب فلايقترب منها أحد .!

تمرع إلى - سلمى - لتشي لها بما رأت لعلها تكسر أو تنزع تلك الشوكة المزروعة بقدم قلبها وبالطريق الذي يوصلها لقلب فتحي .



الخامس عشر

غيبة عزيز

كيف الموت

والموت وين نلقى له دوا.؟



تمرع صفاء فترى سلمى تربط حبلاً للغسيل فتقذف بالقنبلة لكنها لا تنزع فتيلها بل تتركه لها لتنزعه وتلقيها بوجه آية .

تجلس سلمى ببقايا الحبل تربطه عقداً من الغــضب وتــشد العقدة وكأنها تضغط بها على عنق آية لتشنقها.

- وين كنتي .؟

- عند خالتي .

- كذابة كنت تقابلي نور .

شعرت آية إنه لا مفر فهي متلبسة بجريمتها وقــد هيــأت نفسها لأى حكم يصدر عليها من أمها ولا تملك الدفاع عــن نفسها أو طلب العفو ولا حتى نقضاً سيفيدها .

- نعم قابلته صدفةً .

- تعترفي بوجهي .ما أتحشميش[٢١٩] .

- هى الحقيقة ، لامفر منها مهما أظهرت عكس ذلك أمي أنه يحبني وأنا .

تقاطعها سلمى حتى لا تعطيها الفرصة فتكمل حديثها عــن عشقهما فهى تشم رائحة الحب تنبعث من بين شفتيها ، تخشى من هذه القوة التي ستقتل قوتها وإعترافها لايقابله إلا قتلــها ولا تستطيع فعله فهي حبيبة عمرها كله .

[٢١٩] تخجلين

- إن كان هو آخر رجاجيل[220] الدنيا مش حتتزوجيه .

- لن أتزوج غيره .

- تعانديني .. ماشي ياآية إنجوزك لأى رجل يتقـدم لـك حنرميك تحت كرعيه[221] بيش تندمي علـى أنـك خـالفتي أوامري .

- سماح روحي نادي أم ابراهيم الخاطبة قولي لهـا أمـي تريدك توا.

تذهب سماح خائفة باكية دون أدنى اعتراض .

تفكر سلمى .....

لماذا تصرين على رأيك يا آية ..؟ ألهذا الحد تحبينه ..؟ حتى إنك تتحديني وتقفين بوجهي صارخة بأنـك لـن تتزوجـي غيره..؟ هل هو الحب ..؟ هه .. معقول .. هل حدث شـيء بينهما ..؟ لا أتخيل هذا من آية .. فهى طفلة ربيتها على الخجل والطاعة .. لا ابنتي لا تفعل هذا بي .. كفى شكا .. ألا تهدأي من شكوكك هذه ..؟ ارحميني .. لم أستطع تحملك .. رفقـا بي... هل نسيت ماحدث قديما ..؟ لا لم أنس لكنها غير آية .. ية لا تفعل هذا .. لا تضحكي على نفسك الشيطان قادرا على صنعه مرة أخرى كما فعل قديما ..

سأذكرك علك تتعظين ......

---

[220] رجال
[221] قدماه

- خير يا عمتي ..؟ قال العيل[٢٢٢] إنك تريـــديني .. إيـــش هناك ..؟

- خشي يا سلمى شوفي بنت عمك حتقتلني من حالتـــها هدي .

- كنها[٢٢٣] هالمجنونة .. لا تخافي ياعمتي الـــساعة نكلمهـــا ونقولك إيش فيها..؟

- خشي ..الله يربحك يا بنتي .

تدخل سلمى لزينب .. تجد الغرفة مظلمة وهى نائمة تبكي وقد تركت شعرها مشعثا .. دهشت فلم تعتد منها سوى الزينة والتبرج .

- زينب .. كنك إيش فيكي .

- (باكية) سلمى الحقيني .. نا ضعت خلاص .

- فيكي إيش يا بت يومك أسود .؟

- إللي كنت خايفة منه صار .

- يا خيبتي .. حبلتي[٢٢٤] .. حيقتلوك يازينب بوكي وبويـــا وولاد عمك حيقتلوكي.. حتموتي يا زينب .

---

[٢٢٢] الولد
[٢٢٣] مابيها

تدخلا الأثنتان في نوبة بكاء ..ثم تتحدث زينب :

- والحل ياخيتي .؟

- حل ..؟ منين نجيبلك حل ..؟ يخرب بيتك من عادل ابن سعد موش[٢٢٥] ..؟

- إيوة .. ضحك عليه ياسلمى .

- ضحك عليك كيف ياموكوسة .. هو إنتي صغيرة..؟

- والله ضحك عليه .. قاللي جايب لك كلونيا كيف كل مرة وهو يشممها لي رحت عن الدنيا ومادريت بحاجة . ولما فزيت[٢٢٦] لقيته – خد وشي[٢٢٧] – الملعون ابن الكلب .. ونفسي غمة عليه ونريد نطرش[٢٢٨] .. شكلي حبلت يا سلمى..؟

- يانهارنا الأسود (تلطم خديها).. لازم نشوف طريقة ننزل بيها العيل اللي في بطنك الاول.

- كيف ..؟

---

٢٢٤ حامل

٢٢٥ أليس هو

٢٢٦ استيقظت

٢٢٧ فض بكارتي

٢٢٨ نتقيأ

- حنجيب عرق ملوخية وتدكيه[229] فيكي .. وتحركيه نين يتزل العيل .. أو نروحوا العلوة[230] وتنطي مـن فوقهـا نـين يسقط. يخرب بيتك وبيته .

بعد عدة أيام تذهب سلمى إلى دكان البقال .....

- عادل .. إيش اللي دِرته[231] مع زينب ..؟

- هى قالتلك .؟

- عادل هدا ذنبها ..؟ حتسيبها يقتلوها..؟ ذنبـها ألهـا حباتك ..؟ حنوديها لهلك[232] نشوف إيش حيديروا ..؟

- ....

تعود لزينب ....

- زينب .. حسيتي بحاجة ..؟

- لا مافيش حاجة .لانه ولد حرام قاعد ومابا[233] يتزل .. لو كان ولد حلال وخايفين عليه كان سقط مـن بـدري .. (تلطم خديها) حظي أسود.

- لمي دبشك[234] ..

---

[229] تدخلينه
[230] جبل قليل الارتفاع
[231] فعلته
[232] لأهلك
[233] رفض
[234] ملابسك

- إيش ..؟ نلم دبشي ليش ..؟ حنهربوا نا وياه .؟

- لا مش حتهربوا .. لو هربتي حيجوبوكي ويقتلوكي .. يالا لمي دبشك ونا حنستناكي تحت الشباك تعطيني دبشك وتنطي .. يالا بسرعة .

- وين نمشوا ..؟

- مش توه[٢٣٥] .. بسرعة قبل ما يصحوا لنا .. بسرعة .

تصُر زينب ملابسها في ملاءة سرير وتقذفها لسلمى وتقفز خلفها وهم يتستران بالليل الكالح ويهرعن وزينب تنظر حولها وسلمى تناشدها أن تسرع ولا تعلم زينب إلى أين تذهبان؟

....

- سلمى .. هدا بيت عادل .. إيش اللي جابينا هنا ..؟

- ماعندنا غير هالحل .. خشي لبوه[٢٣٦] وقولي له على اللي صار من ابنه وهو حيتصرف .

- حيتصرف كيف ..؟ والفضيحة ..؟ يافضيحتي وسط الخلق .(تبكي وتلطم خديها).

- الفضيحة صارت والله يكون في عون رجالتنا .. روحي يازينب المهم الحين مايقتلوكي .. روحي يُمي روحي .

---

[٢٣٥] ليس الآن
[٢٣٦] ادخلي لأبيه

عادت سلمى تبكي على ماسيحدث ومما فعلته زينب باهلهم.. وخيبتهم الكبيرة في بناهم فبعد سيرها مع حميد أطلقت زينب مدفع الفضيحة ليدوي بالنجع كله .كانت تعلم جيداً إن مافعلته هو

عين العقل ....

تذكرت يوم حدث هذا مع - فتاة بنجع آخر ولجأت لنجعهم - وقد سردت لها أمها الحكاية ..

ذهبت الفتاة بحملها لأهل المتسبب فيه لينجدوها من أهلها لأنها ستقتل لو ظلت ببيتها وعرفوا بفضيحتها .

فوالد الشاب خوفا على الفتاة وابنه ودرءا للمشاكل الكبيرة يهرع بها إلى شيخ قبيلة أخرى يحترمه أهلها ويكبرون له يسموه (الكبارة) فتجلس ببيت شيخ القبيلة الأخرى لحمايتها ويبدأ في مقابلة أهلها ويخبرهم أن ابنتهم في حماه فلا يستطيعون التعدي عليه .. فيأمر أهل الشاب بتجهيز عشرون أو ثلاثون رأسا من الدواب لرد الخطأ عليهم ولتعديهم على بيتهم وحرماتهم .

وإن كان أهل الشاب من غير القادرين تحمل الشيخ المسئولية عنهم وكان ملزما بها .. ثم يحدث صلحا وتتزوج الفتاة من الشاب ..

لكن أمها قالت إن الفتاة قُتلت بعدها فأهلها وإخوانها لا يتحملون فضيحتها حتى بعد الكبارة والصلح ..

- الله يستر عليكي وعلينا يازينب .الأيام اللي جاية أسود من قرن الخروب .

تطلب الرحمة لزينب وتقرأ فاتحة الكتاب مبللة بدمعها .

تعود لتسكن دروب الخوف بواقعها .....

لكن آية لا تفعل ما فعلته زينب .. لا هى ابنتي وأنا أعرفها جيدا .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. الله يلعن الشيطان وحضوره . لكن يجب أن تتزوج فورا حتى أرتاح منها ومن عشقها للأبد .

يدخل صلاح فتقابله سلمى تلقي عليه قذائف لايستطيع صدها أو ردها وهى قد حرمت الطعام على نفسها والبيت كله.

بعدما تشحنه سلمى بغضبها ؛ يظل يضرب آية ويسبها ويلعنها بيد لم تعرف كيف خلعت ثوب حنانها فجأة كأن لحظة جنون تلبستها .

يفيق ليجد آية صامتة لا يتحرك فيها سوى دموع تسيل كأن هناك سداً خلف جفنيها وقد خزنت دموعها خلفه فحطمه أبوها وهو يكيل لها اللكمات .!

ينظر ليديه ثم يضربهما بالحائط كأنه يعاقبهما فيربت على رأسها ويحبس دمعة كانت على وشك الهروب.

سلمى بالخارج برغم سعادتها بالتحول الذي حدث لصلاح إلا أن اللكمات التي يصوبها لقلبها لم يتحملها صدرها فبدأ يئن وهى بين أن تمنعه وأن تتركه قد تمزق قلبها لكنها صمدت حتى لايغرق آخر قوارب قوتها ببحر ضعف أمومتها .

طرقات على الباب ليصمت المنزل الحزين فإخوتها يتمنون لو أن مارأته آية يوزع عليهم جميعاً ولا تستحوذ به وحدها حباً وخوفاً عليها .

تدخل أم إبراهيم ...

– خشي يا أم إبراهيم .

– خيراً يا أم آية ..؟

– خيراً ، أنريد أنجوز آية .

تدهش أم إبراهيم لطلب سلمى ؛ فآية لا تحتاج لأن تُلقى في سوق نخاسة، لكن برغم دهشتها إلا أن سعادتها لا توصف وهي ستملك بضاعة تستطيع ترويجها بسهولة بل وستجني من خلفها أموالاً طائلة .!

– انريد عريس لأية يكون غني وبسرعة .

- عندي عريس ليبي ثري لكنه كبير بالعمر .. سيوفر لها كل ما تتمناه ستسافر معه فهو يمتلك قصراً فاخراً وستعيش كالأميرات .

- موافقة، هاتيه بسرعة .

- و لَم العجلة ..؟

- إنريد إنزوجها ونرتاح من حملها .. بيش[٢٣٧] نبهت[٢٣٨] لخواهّا .

- غداً سأخبرك بموعد زيارتنا لكن إعطني صورة للعروس ليراها الرجل قبل مايأتي لزيارتكم.

تسمع آية وهاهي أصبحت سلعة تباع وتشترى ..لكن كيف تفكر أمها في بيعها ..؟ أين ذهب حبها ..؟ لما كل هذا ألأنها تهوى ..؟ هل الحب حراماً ..؟

أمي ليتك تقتليني قبل أن تلقيني بين فكّي رجل، أهنتُ عليك لهذا الحد .؟ أعلم أنك تحبيني لكن لماذا تريدين التخلص مني ماذا فعلت لكل هذا ..؟ ألم تقولي بأني جوهرتك الغالية.. وها أنت تلقينها بسلة مهملات رجل لا أعرفه ..؟ لماذا يا أمي.؟

---

[٢٣٧] حتى
[٢٣٨] نرى أو ألتفت

لن يحدث هذا أبداً.. لن أقترن بغير نور، أما نور أو ظـــلام القبر .

ينقضي الليل الكالح متشحاً بسواد أكثر، تمرُّ ساعاته ثقيلـــة متراخية، آية لم يغمض لها جفن، خائفة أن تنام وتصحو فتجد نفسها تسكن عباءة رجل غريب .

صفاء تنام هانئة بعدما سمعت موسيقى أنين آية التي تطربهـــا بل وتتراقص روحها على صوت اللكمات التي وجهت لعدوتها اللدودة سارقة فرح أيامها .

فتحي عاد لبيته بين نارين يندلعان داخله .. نار غيرته مـــن رؤيتها مع نور في لحظة عشق عارية وبين ولعه وشوقه لرؤيتها وحبه الذي يجعله يغفر لها أيَّ شيء تفعله .

نور لا يعلم بسوق النخاسة الذي فتح لتعرض فيه حبيبة قلبه بأبخس الأثمان، بل قد فُتح المزاد وعلى كل من يرغب أن يقوم بعمل معاينة للبضاعة ليرى محاسنها وعيوبها.

طرقات ملغومة بفراقٍ قاسٍ ....

– مرحبا خشي .. ها إيش الأخبار يا أم ابراهيم ..؟

– رأى العريس الصورة ، سال لعابه وكاد يجن من جمالهـــا وطلب أن يتزوجها بأسرع ما يمكن لتسافر معه .

تتقزز سلمى من حديثها وتحدث نفسها ...

ما هذا ما الذي حدث لي ..؟ هل جننت يا سلمى ..؟ هل أنا مخدرة ..؟ آية حبيبة عمري ورفيقة حزني وفرحي أألقيهـــا هكذا لشخص لا أعرفه ..؟ ليس هذا فقـــط بـــل ســـيأخذها وترحل بعيداً عني، كلا لن يحدث هذا أبداً .. وقبل أن تـــصرخ في وجه أم إبراهيم برفضها يبزغ وجه نور الذي أقض مضاجع أمومتها، كم تمقته وهو الذي فرق بينها وبين حبيبتها، فهو يريد سرقتها من حضنها ليسكنها بلاد الفقر والجوع تلك البلاد التي يهرب منها الحب وتنتحر فيها العواطف .

- إمتى بيجينا العريس ..؟

- ننتظر تحديد الموعد وسيأتي فوراً .

- عندك صورة له ..؟

- ها هي .. (بخوف)

- يا نهار أسود إيش هذا يا وليَّة ..؟ كبير عليها قد جـــدها لو جاني - نا- ما وافقت بيه أكيد متزوج .

- لديه زوجتان وأحد عشر ولداً وبنتاً .

- إتريدي آية تكون الثالثة حرام عليك .

تخاف أم إبراهيم أن تفقد تلك الصفقة الرابحة التي أتمتها معه وقد أخذت جزءاً من أرباحها .

- انتظري حتى ترين الهدايا التي سيحضرها لها .

- حرام عليك بوها مش حيوافق .

- هل لأبيها كلمة لو وافقت أنت ..؟ سنحضر غداً وبعد رؤيته افعلي ما تريدين ..؟

- ما في داعي يجي بوها بيرفضه ؟

مقتولة سلمى لكنها لم تزل تلك المرأة القوية التي لا تتنازل عن عرش قوتها مهما كان الثمن الذي ستدفعه حتى وإن كان كل ما تملكه .

- صلاح .. أم إبراهيم جابت عريس لآية راجل كبير وغني عنده قصر وخدم وحشم .

- أين قصره هذا لأسأل عنه ..؟

- في ليبيا .

- ليبيا .!! هل سيأخذها لتعيش هناك ..؟

- وإيش اللي يمنعها ، بنات كثير راحن[٢٣٩] عاشن بليبيا وتقول إيش عالخير والعز اللي يعيشن فيه ويعيشن فيه هلهم.. حتعيش أميرة تكرد هذا..؟

---

[٢٣٩] ذهبن

– هل ستتركين آية ترحل عنا وهي النور الذي نـــرى بـــه الدنيا ..؟

سلمى تصرخ فيه ....

– صلاح وفر كلامك نا أنريد نجوزها بيش نرحم روحنـــا من الفضايح، كيف ترفع راسك بين الناس لو سبناها بـــتحط راسنا في الطين سترة البنت زواجها .

– كما ترين ..؟ لكن أخاف عليها الغربة مع رجل لا تعرفه ودنيا جديدة عليها .

تنتصر سلمى كل مرة ؛ مرة بعقلها ومرات بشدها وقوتهـــا التي لا تقهر .

آية مصابة بسكتة دماغية أوقفت تفكيرها وشـــلت لســـانها وتقوقعت داخل نفسها الرافضة لما يحدث لكن لاحيلة لها سوى الصمت المطبق .

تبدأ سلمى في تجهيز المنزل لوصول العريس مع أم إبـــراهيم وتأمر آية أن تجهز نفسها.

تدور بالمنزل تتذكر يوم أتى صلاح مع أخيها لخطبتها..

يأمرها أباها أن تجهز نفسها لملاقاة عريسها تنظر في مرآتهـــا ترى شبحاً يتهيأ لليلة عرسه .!

آية مصابة بسكتة دماغية أوقفت تفكيرها وشــلت لــسانها وتقوقعت داخل نفسها الرافضة لما يحدث لكن لاحيلة لها سوى الصمت المطبق .

تبدأ سلمى في تجهيز المترل لوصول العريس مع أم إبــراهيم وتأمر آية أن تجهز نفسها.

تدور بالمترل تتذكر يوم أتى صلاح مع أخيها لخطبتها..

يأمرها أباها أن تجهز نفسها لملاقاة عريسها تنظر في مرآهـــا ترى شبحاً يتهيأ لليلة عرسه .!

ترفع يدها لتمشط شعرها وفي المرآة ترى نفسها تميل ثرى رفضها فوق رأسها ..تمد يدها لتخضب وجنتيها باللون الأحمر لكنها تجد زهرة غسيل زرقاء قد لطخـــت وجههـــا لتـــصبح كالشبح التائه في خرائب يسكنها، قلم الكحل كأنه قلم مـــن خشب ضرير يُعمي عين عمرها وهي على يقين أنها لن تـــرى الفرح مرة أخرى .

تبتسم لها أمها التي قالت لها يومها :

- إيش كل هاالجمال يا سلمى ..؟

وتعجبت كيف أنها لم تر الثرى فوق رأســـها ولا زهـــرة الغسيل بوجهها ولا لون العمى الذي كحلت بـــه عينيهـــا ..؟ ذهبت لمرآها لترى كل هذا مرة أخرى وتسخر من أمها التي لم

تر ما فعلته بنفسها ابتهاجاً بهذا المغفل الذي أتى ليقتات على ما تبقى من امرأة تسكنها .

تخرج زفرة حارقة مارقة حملت معها رائحة حرائق قديمة لم تنطفىء أبداً بل كلما زاد عمرها زادت اشتعالاً .

تعطي سلمى فستان العيد لآية فترتديه دون مناقشة تجلسها أمامها تعدل من شعرها وهي لا تشعر بكل مايحـــدث حولهـــا فتتعجب سلمى من استسلام آية وتسأل نفسها....

ماالذي يجعلها تنفذ ماأريده دون أدنى اعتراض ..؟ هل هي مريضة ..؟ كلا أنها تدعي المرض ..لن تضغطي عليَّ يا آية حتى لو مرضتِ ستتزوجينه شئت أم أبيت .

سيارة فارهة تغلق الشارع تهبط منها أم إبراهيم ..

ترى سلمى السيارة فتبتسم ابتسامة عريضة ، تنتظر أن ترى العريس وأم إبراهيم تذهب عند بابه تساعده في الهبـــوط مـــن السيارة وما إن تراه سلمة تشهق شهقة من يراها يتخيـــل أنهـــا غرغرة الموت .

تنظر سلمى لأم إبراهيم بنظرة كلها تهديد ووعيد .

يدخل الرجل الذي انتهت صلاحيته و يـــستعد لإعدامـــه كالخيول الهرمة، يجلس وقد مسح البيت بنظرة متفحصة عرف منها أحوالهم .

لن توافق ؛ أيُّ رجل غير نور سترفضه .

يدخل صلاح وما إن يراه يحاول أن يعيد شريط خطواته ليفر من أمامه لكن لا محالة وقف الرجل للقائه .

دخل الأثنان في أحاديث شتى واستأنس به ووجده خفيف الظل ضحوكاً وقد حذف حديثه عشرون عاماً من عمره لكن الرجل كان داهية وعرف من أين تؤكل الكتف فقد منح صلاح احتراماً لم يحظ به من قبل .. فكاد يطيرصلاح من عبارات التفخيم والتعظيم من الرجل لحديثه وفكره .

تنظر إليهما سلمى وهي لم تسمع من صلاح أى جملة تستحق كل هذا الإطراء الذي أسرف فيه الرجل .

عندما رأى سلمى وقد أخبرته أم إبراهيم بقوتها وجبروتها أدخلها في الحديث وبدأ بالثناء عما سمعه عن تربية سلمى وعلى رقة وأدب آية وهدوءها وإن هذا لايخرج إلا من أم راجحة العقل قوية تعرف كيف تقود سفينة أمومتها دون أن تعرضها لخطر الغرق .

- جئت طالباً يد كريمتكم .

- ستراها وأمنحنا الفرصة لنسألها عن رأيها سلمى ابعثي في طلب العروس .

تدخل آية كالدجاجة المذبوحة ترقص بنحرها ولاتعرف أين ستسقط بعدما تنهي رقصة موتها .

وما إن يراها يقول ...

- بسم الله ماشاء الله .. لم تتحمل الصورة كل هذا الجمال (يرسل عيناه لتكتشف كل معالمها التي لم تظهرها الصورة) أم آية هلا سألتها الآن فعندي ارتباطات يجب أن أسافر في أقـــرب فرصة ولن تحتاجوا لشراء شيء فكل ماتحتاجه سأحضره لها بل وأكثر و هذه هدية رؤية العروس.

علبة قطيفة حمراء كبيرة تشي بحجم ما تحويه وقيمته .

- أرجوك لا داعي إلى الهدايا الآن ؛ حتى نعرف رأيها .

- الهدية لا علاقة لها بالموضوع حتى لو رفضتني هذه هديـــة الزيارة .

يتكأ الرجل على يد أم إبراهيم ، همس لسلمى ..

- فكري ياسلمى هذه أول الهدايا وليس آخرها .

تفتح سلمى العلبة فترى بريقاً ينبعث منها ليخـــرج شـــبح الطمع الكامن داخلها وتصرخ ..

- تعال ياصلاح شوف إيش اللي في العلبة ؛ طقم ذهـــب عيني ماراعته من قبل .! إيش رايك ياصلاح في العريس .؟

بعدما دفن صلاح رأسه داخل العلبة ليسيطر عليــه بريــق ساكنها .

- ارتحت له وشعرت أني أعرفه منذ زمن .

- نعم .. هو كبير بالعمر لكن نين يتكلم تلاقيه كنه شاب صغير..المهم خش لآية وأعرف رايها .

يدخل غرفتها ليجد تمثالاً صامتاً أبدع الله خلقتــه وخُلقــه وصمته زاده بهاء وجمالاً .

- آية .. ما رأيك بالعريس ..؟

يعيدها صوت أبيها من بلاد الوحشة والوحدة التي قررت أن تسكنها وحدها مع غربان الفراق وخفافيش الموت البطيء .

- أى عريس .؟! أفعل ماتراه لن أرد لك أمراً يا أبي .

- بارك الله فيك فهو رجل محترم وقد وعدني بأنه سيحسن عشرتك ويسعدك .. مبروك ياحبيبتي .

تحدث نفسها ......

هل كلمة مبروك تصلح لهذه المناسبة أعتقــد أن الكلمــة المناسبة هى البقاء لله أو ماشابهها .؟

تطلق سلمى صيحات الفرح ليتجمع الجيران ويعرفون الخبر ويقفون بين مهنئين وحاسدين وناقمين على السعادة التي منحت لآية دونما بناقم .

تفرح صفاء بهذا الخبر ؛ فعدوتها سترحل بعيداً ليس عن الحيّ فقط بل عن البلاد كلها ليخلوا لها وجه الحبيب وأيضا لأنها لن تتزوج من تحبه فتعيش عمرها كله بحسرتها عليه .

تخبر فتحي بهذا الخبر؛ لتتشفى بحرقته أمامها لكن الخبر يمر عليه مرور الكرام فلا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .لكن داخله سكيناً باردة تمزق أوصاله قطعاً قطعاً قطعاً دون رحمة ، فقد اعتاد هذا الألم منذ لفظه قلبها.

تبدأ مراسم خطبة آية بسرعة بناء على رغبة كيس النقود المتحرك .

يسمع نور فيهرع إلى بيتهم .. يطرق الباب وقد قارب على إقتلاعه .

- أمك بالداخل ..؟

- ماذا تريد منها ..؟

- اخبريها إني أريد رؤيتها .

بصوت يصل لحد الصراخ .

- قلت لكِ اخبريها إني أريديها .

تخرج سلمى على صراخه وقد استحضرت كل قواها لمواجهة لم تتخيل أن تحدث و لم تستعد لها .

- إيش إتريد .؟

- هل خبر خطبة آية حقيقي ..؟

- أيوة ودخلتها بعد أسبوع .وانت إيش دخلك ..؟

- أيُّ زفاف ..؟ ماذا فعلنا لتقتلينا ..؟ إن كنت تكـــرهيني ألا تحبين أبنتك ..؟ لماذا تصرين على قتلها بهذه الزيجة وأنـــت تعلمين إنها ترفضها .؟

- من قال لك رفضت ..؟ هي وافقتْ .

- أبدا آية لا تفعل هذا بي ؛ أنها تحبني وأنا أحبها .

- كفاية .. قلت لك وافقت . يالا ماجانا من وراك غـــير الهم والغم .

- إذن إحضريها أمامي لتقول أنها موافقة .

- ليش نجيبها قدامك ومن أنت .؟ وإيـــش لـــك عنـــدنا لتحاسبنا .؟ أخرج بره .





السادس عشر



حتى بقسوته القديم

نستانس

نين نجيب سيرته

يصرخ نور وسلمى تدفعه إلى الخارج حتى تسمعه آية وتلبي نداء قلبه المكلوم .

- آية تعالي اخبريها أنك لا تستطيعين العيش مع سواي .. سنموت أنا وأنت إن بعدنا عن بعضنا .. بالله عليك اخرجي، اصرخي بوجهها لا تعطيها الفرصة لذبحنا..؟ لا تكتبي نهايتنا بصمتك.. اصرخي معي ليسمعنا قلبها الذي تحجر.. ليكن صراخنا بالرفض جرساً نعلقه برقبتها يؤرقها أينما ذهبت ويكون رنينه مقصلة إعدامها .

تسمعه آية وتبكي بدموع غزيرة كنزيف لجرح أميٍّ التجلط .! تتدثر بصمتها الذي يتفاقم داخلها ويرحل بها عن دنيا الأحياء .

يخرج نور بعدما شعر أنه على وشك إرتكاب جريمة لن تنساها له آية ماحيت .

يغدق العريس بالأموال على سلمى فتشتري لآية كل ماكانت تحلم به أيُّ أم لأبنتها بل وتزيد ، كل هذا أعماها عن حالة آية .؛ فلم ترَ الشرود والوحدة والحزن أصدقاء ابنتها الجدد .. وإن احتالت على نفسها حتى لا تشعر بها فتقتل خوفها عليها بصغر سنها وأنها لا تعرف مصلحتها .

تدخل إلى آية بالهدايا التي أشترتها.. تنظر آية للأشياء لكنها لم تعد ترى غير اللون الأبيض فكل الأقمشة صارت

كالأكفان.. تومئ لأمها وترحل مرة أخرى لعالمها الذي تسكنه وحيدة ولا تسمح لبشر من الاقتراب منه .

لم يتبق على موعد رحيلها إلا سويعات قليلة ..

ينقضي اليوم الحزين ويأتي الليل أكثر حزناً فيسير القمر والنجوم في مشهد جنائزي مهيب داخل سرداق السماء الأولى تنتحب لرحيل النجمة الحزينة لتسكن سماء أخرى تفقد فيها كل ألوان الحياة .

تسري بشرايينها أمواج الفراق فتنشد لحن الرحيل وقد دانت لحظة خروجها على هودج الأخطبوط وهاهي ستُقَدم قرباناً للشيخوخة ليقتات على شباها الحزين .

آخر طرقات للعشق فوق نافذها الحزينة التي ستفقد تلك الحظات التي كانت تحتضن فيها قلبين ذابا في الهوى..

– حبيبتي .. أحقاً سترحلين وتتركيني .؟

ينتظر رداً منها لكن وكأنها بلعت لساها والحروف تصخرت بحنجرها واستعاضت عنهما بدموع تمطل كشلال فقد عقله .

– تحدثي .. ارفضي لا تستسلمي حبنا أقوى.. أين ذهبت قوتك ..؟ هل ستبتعدين عني .؟ سنموت أنا وأنت .. تكلمي يقتلني استسلامك ، ألا تحبيني ..؟ أتقتليني بيديك ..؟ تصدي

للطوفان سأكون إلى جوارك لكن لا ترحلي عني .. ماهـذا .؟ أموت أمامك وأنت لا تشعرين ، ماذا فعلوا بكِ لتـصلي إلى هذه الحالة .؟ لن أصمت وأتركهم يقتلونا سأتـصدى للـدنيا كلها حتى لو قتلوني .

يرحل آخر نور بعمرها لتستعد لظلام شيب يستوطنها .

يقف خلف النافذة فتسمع نواحه وأنينه كأسد جريح يتلوى من خنجر دفن بصدره يقتلهما معاً

تبكي لبكائه فيخرج أبوها ويسمع نواح ابنته وحبيبة قلبـه فيشق صوت بكائها قلبه إلى نصفين ودمعها يتساقط فوق كبده يلهبه.. فتمحو بدموعها حروف الخوف والضعف التي نقشتها سلمى فوق جدران عمره المهترئ .

يحدث نفسه ...

ماذا حدث لي ، أين ذهب عقلي ..؟ أأرمي آية .. أأتـرك زهرتي يلتهمها هذا العجوز الخرف ..؟

هي ليست ابنتي فقط بل عمري كله الذي زرعته داخـل مقلتيها .. أأحرق جنتي بيدي بعدما عشت أراعيها وأرويهـا بترفي ..؟ أبدا لن يحدث هذا وإن إضطررت لقتل سلمى .

قتل سلمى ..؟ أأفكر في قتل حبيبتي ..؟ يالكِ مـن امـرأة كسكين فاخر تلهيك بوميضها وأنت تجـرح يـديك دون أن

تدري حتى إنك تتلذذ بغيبوبة عشق لرؤيتها ولا تشعر بوجــع هذا الجرح

لماذا يا سلمى ..؟ تعرفين كيف تُصَدرين الألم لكــل مــن حولك ..؟ تحتالين على نفسك بأنه الخير .. لكن أيّ خــير في قلوب تنوح ونبض يصدأ معدنه العاشق بنــدى بُخلــك..؟.. أتقي الله فينا . دفنتِ داخلي السعادة وذبحتِ عــصفور قلــبي لكني لن أعطيك الفرصَة لذبح يمامتي ..يجب أن يحــرر نفــسه الرجل الذي سجنته بمعتقلــك أيتــها الــديكتاتورة الفاشــية سأستيقظ من سباتي لأقف لكِ بالمرصاد.!!

يأتي الصباح غائما مبهما عقيم الضوء ....

يسرع نور إلى أم إبراهيم .....

- نعم يابنيَّ ماذا تريد ..؟ هل تبحث عن عروس ..؟

- بل جئت لأسترد منك عروسي .

- لا أفهم ماتقول .

ينظر إليها شزرا ....

- آية .. ماذا فعلنا لك لتفرقي بيننا ..؟

تخاف أم إبراهيم من أسهم شر تشرأب من عينيه عطــشى لأيِّ نزف .

– والله يابني هذا طلب أمها ونفذته لها ، ليس لي دخل .

– كما بدأتها أنهها وإلا سأرتكب جريمة قتل .

– كيف أفعل هذا ..؟ أنا أحضرت لهم العريس وهم وافقوا حتى العريس ليس له دخل بالموضوع .

صارخاً.....

– دليني على هذا العريس .

تخبره بعنوانه خوفاً من بطشه وانتقامه ورعبها من هذا العاشق الجريح الذي يريد أن يقتص من الدنيا التي ستفرق بينه وبين من يحب .

طرقات باب على الجانب الآخر ببيت الغزال الذي يستعد لمراسم نحره ..

– مرحبا يا فتحي .. خير .. والله موضوعك نا قلت لامك على رأى آية .

يقاطعها قبل أن تقضي عليه مرة أخرى .....

– خالتي .. لم أتِ لهنا لأتحدث عني .. بل عن آية ونور .

– إيش .. نور ..؟

– خالتي نور تحب آية .. وأعرف أنها تريده ..أرجوك يا خالتي لا تفرقي بينهما .

- عجيبة أنت اللي جاى تقول هالكلام ..؟ نا نعرف أنك تحب آية .

- كنت أحبها .. لكنها الآن أختي .. إن كان نور لا يملك مالا يستطيع أن يوفر به تكاليف الزواج فلا تحملي همها سأساعدهما .

- معقول .. أنت بعقلك والله شكلك إنجنيت[٢٤٠] ، إيش اللي تقوله ..؟

- كل تكاليف زواج آية ونور سأتكفل بها على أن يكون هذا سراً بيننا لا يعرفانه.

- فتحي .. معلش كل شيء حضرناه لزواج آية وفرحها بعد كم يوم .

- أرجوكِ ياخالتي .. أرجوكِ.

- والله الكلام ما عاد ينفع نين[٢٤١] يجي أبوها نسأله .

يرحل وهي تضرب كفا بكف على هذا العاشق الحزين ..

غريبة .. كل هذا الحب يافتحي ..؟ ليتك وافقت عليه ياآية فهو الرجل الذي كان سيسعدك لكن الحب المتمرد الطاغية حينما يعطي أوامره .. لا يخالفه أحد ..!

---

[٢٤٠] جننت
[٢٤١] عندما

(حتى بقسوته القديم .. نستانس نين نحيب سيرته)[242]

يخرج فتحي قبل خروج دمعات لم يمنح سـلمى الفرصـة لتراها فيحاول إزاحتها من فوق نوافذ عينيه بعدما ضببت رؤيته فلم ير طريقه ولا يعرف أين يذهب.

فيتمنى لو أنه استطاع أن يقول لها .....

أنه يدفع ما تبقى من عمره ليرى آية سعيدة ، ليتها تعلم أنه لا يريدها أن تبتعد عنه يكفيه أن يستنشق نفس الهـواء الـتي تتنفسه ، تغطيهما نفس السماء وإن هوت نفسه لرؤيتها فـلا يقتله بعدها وتنائيها فلا يكون حدود ولا أسوار بينـهما بـل ويمكنه قتل كل من يغضبها أو يسيء لها.

ببيت صلاح والذي كأنه يستيقظ لأول مرة بعمره ..فهذا الصباح غير كل الصباحات التي مرت من قبل .

- كنك إيش فيك ، إللي يراعيك يقول إنك ماتمت أمس.؟

- نعم لم أنم ، سلمى بدون نقاش آية لن تتزوج هذا الرجل اعيدي للرجل مادفعه .

- إيش تقول ..؟ أنت قابلت نور .

- لا تناقشيني ..افعلي ما آمرك به .

[242] برغم قسوته إلا أني أستأنس بسيرته

- تأمرني .! إيش اللي صار وكيف تكلمني بهالطريقــة .؟ إسكت أنت مالك دخل فوتني[٢٤٣] نا حنديز اللي نراعيه .

يصرخ فيها كأنه أفاق من كابوس كان يكتم على صدره .

- جاء الوقت لتصمتي أنتِ .

عجيبة فتقول:......

(بعد ركوبنا عالخيل .. تمينا عفاريت نفجعوا)[٢٤٤]

ومازال الشجار مستمرا على القيادة وآية هــي القــارب المتهالك الذي ينهار من هذا العراك الغبي ولا تعرف هي أيــن سيكون مصيرها هل الغرق أم أصطدام وحشي سيودي بها .

- هاهو بيته .. سأرحل أنا .

طرقات تحمل بين طيات أناملها غلاً وحقداً وشراً مستطيراً. من أنتَ .

- هل أنتَ من سيتزوج آية ..؟

- نعم .. هل أنت قريبها ..؟

- كلا .. أنا حبيبها .

- ماذا قلت ..؟ ليتك تعيدها .

---

[٢٤٣] اتركني

[٢٤٤] بعدما كنا فوراس نركب الخيل أصبحنا عفاريت نخيف الناس

- حبيبتي .. أحبها وتحبني .. من أنت لتأتي من آخرالـدنيا لتفرق بيننا ..؟ لماذا نحن بالذات ..؟

يغتاظ هذا الداهية ، يسأل نفسه كيف سيترك تلك الوليمة الفاخرة لهذا الأبلة وهو الذي استعد لها ..؟ لكن كيف لـه أن يأكل هذا الطبق اللذيذ بعدما سقط فيه هذ الصرصور حتى وإن أصر على أكله سيتقيأه فليتركه لهذا الصرصور والـدنيا مليئـة بالولائم الفاخرة .

- لم أكن أعلم بأمركما ، لوكنـت أعـرف ماتقـدمت لخطبتها فلم أحضر لها خصيصاً بل لأى فتـاة ولا يهمـني إن كانت هى أو غيرها .

- لن تتزوجها ..أقتلك إن فعلتها .

يخرج نور يحمل بين يديها ثوب السعادة الذي سيجعل آية ترتديه فهى له فقط ولن تبتعد عنه أبداً إلا بـالموت .. يقطـع الطريق طيراً ليخبرها بأنه فك أسرها من قفص العجوز لتحلـق في سمائه فقط .

- كيف تكلمني بالطريقة .؟ أنت نسيت روحك ولا إيه.؟

- ستكون هذه لهجتي دوماً ..قتلتني بغـرورك وجبروتـك والآن تقتلين أبنتي .. الآن فقط قتلت صمتي أمامك .

- إسكت أنتَ ، من إمتَى طلع لك صوت .؟

يصفعها على وجهها لينحر كرامتها أمام رعاياها وهي تجمع كرامتها الممزقة تصرخ فيه طلباً للطلاق لتحفظ مــاء وجههـا المراق .. ثم تضع طلاقها أمام زواج آية .

تخرج آية من صومعة صمتها محاولة تهدئة الموقــف وهـــي القارب الصغير التائه في قلب عاصفة قاتلة .. لم ينتبه أبويهـا لصراخها فتقول :

كفى .. سأتزوجه.. أبي سأتزوجه لا تهدم المترل إخوتي في حاجة إليكما وإن كنت أنا سبب الخراب فسأريحكما مـــني.. صدقوني سأريحكما مني .

لم يسمعاها فقد كان صوت العراك قويا ابتلع صوتها فلـــم يسمعاها .

- قلت لكِ لن تتزوجـــه .. وإن كـــان طلاقـــك الـثمن سأطلقك .

- طلقني .. حنجوزها له ووريني كلام مين اللي حيمشى .

- سلمى .. انتِ باقي الأطفال يصرخون بقلـــب ســـفينة أوشكت على الغرق ..أمهم بمنتهى العناد تثقبها وبهم أبـــوهم بأطلاق أول صاروخ أدخره عمره كله لهذه اللحظة .



السابع عشر

يانا

من خبارة جتني

في عين الركبة كسرتني

تجري آية إلى الحمام تتجرع الموت الذي تنكر في -الصودا الكاوية - تدخل عليهما بعدما تجرعت ..

سلمى .. أنتِ طـــــ ..

- أبي .. أبي .. كفى لقد أرحتكما مني .. ســأموت أنــا ليعيش إخوتي أرجوكما .

تفقد قواها وتتقيأ أحشاءها ممزقة فتقع بين يدي أبيها فاقدة وعيها .. يتعالى صراخ سلمى والأطفال يــصرخون وينــادون عليها لعلها تسمعهم وتعدل عن رحيلها .

أبيها يجري يميناً وشمالاً بلا هدف.. يشعر أن عمره ينساب من بين يديه كرمال ناعمة تحترف الفرار .

يأتي الجيران يستدعون الإسعاف لتخرج آية من بين أيــدي الجميع .

يعود نور سعيداً يحمل البشرى ..

يرى سيارة الإسعاف تفترش طريق عشقه فــيرى حبيبتــه محمولة على أعناق سرير معدني بارد أحن عليهــا مــن أمهــا يحملها ويسرع بها إلى السيارة ليخفيها عن العيون ..

نور يصرخ .....

- لماذا يا آية ..؟ والله لقد أنهيت الموضوع لن يستطيع أن يفرقنا أحد لماذا أستعجلتَ الوجع..؟

صفاء تبكي وقد سجنت نفسها بغرفتها ولأول مرة تــشعر بوخز لم تعتده و لم تعرف هذا الألم من أين يهــب ولاطريقــة لإيقافه ..؟ بعدما رأت صديقتها التي لم تكن تعرف ألها تحبــها كل هذا الحب الكامن داخل أعماقها والذي طفا عندما شعرت بفقدالها ورألها وهى تنعس فاقدة لوعى دنيتها.

تسمعه آية والروح قد عادت تسري في أوصالها ..

يهرع بها السائق في محاولة منه لسد الأبواب حتى لا تخــرج روح هذا الملاك الصغير .

يجري نور خلف السيارة يتبع قلبه المسجى داخلها .

- آية .. لا تتركيني .. حبيبتي تشبثي بالــدنيا لأجلــي .. خذي من عمري ماتبقى من أيام وعودي لقلبي .. سأموت لو رحلت عني .

تمزق المادة الكاوية أحشاؤها ولا تشعر فقد تمزقت أحشاءها ألف مرة قبل أن تتجرع هذا الموت الحارق .

يصرح الأطباء بأنه قد أنفصل المريء عن البلعوم ويتم عمل الإسعافات لها ..

تبتسم بسخرية من يعرف إلهم يجهدون أنفــسهم كــألهم يبعثون الروح في ميت .

يجلس نور أمام المستشفى بلا حراك يمر يوم وأثنان .

تراه سلمى يجلس فتشتاط غيظا وتهمس ...

أنتَ وغرامك من فعل بنا هذا ..؟ والله لن أجعلك تراها أو تكلمها .

يذهب فتحي وقلبه يتمزق على حبيبته التي يقتلها العشق كما قتله قبلها.

يرى نوراً يجلس أمام المستشفى فيرق لحاله ويشعر أن آية لو كانت منحته نصف ما منحته لنور لكان يجلس هو الآخر بجواره ولن يستطيع أحداً إجلاؤه عن المكان .

- كيف حالها ..؟

- لا أعلم .. أمها تمنعني من رؤيتها والله لقد أشرفت على الموت ألف مرة وأنا لا أعلم مابها.

يقتل فتحي كل حرف من نور ويتمنى لو صرخ بألف مثلها فتسري فيه ناراً كما تسري في الهشيم.

- سأطمئن عليها وأخرج لأطمئنك .

يدخل فتحي وشوقه يسبقه لرؤية حبيبته والاطمئنان عليها تقابله سلمى وتخبره أنها بخير لكن الزيارة قد منعت عنها .. يقف مع أمها وقلبه دخل الغرفة يطمئن على حبيبته .

- خالتي تأمريني بشيء ، هل ينقصكم شيئاً ..؟

المرضة تخبر سلمى بان الطبيب يريدها ....

فتحي يحدثها من خلف الباب ...

لماذا يا آية .. هل هانت عليك حياتك ..؟ هل نسيت قلبين يهيمان بك عشقا ..؟ هل قررت الرحيل وأنت تغرسين خنجر رحيلك في قلبينا لنشترك معا في جرح واحد يـصرخ بوجـع واحد .؟قد يكون قلبي غبياً لم يعرف كيف يبلغك بعـشقه.. قلبي هذا الممدد فوق فراش من جمر ضلوعي.. ونور هل هـان عليك فقررت تركه ..؟ ألم تفكري كيف سـنعيش بـدونك وكيف يكون حال دنيتنا بلا شمسك ..؟ آه لو أستطيع ضمك لصدري واستضافة وجعك ليتني كنت مكانك وبرئت أنت.. سحقا ايها الحب فأنت تشيد قصورك فوق رمالنا الباكية .

- فتحي حيديروا لآية عملية بكرة .

- لاتقلقي يا خالتي ستشفى وتكون بألف خير .

قبل أن ينصرف عاد قلبه بين ضلوعه يطمئنه على آية فخرج مطمئنا .

خرج لينهض نور مسرعاً وهو الظامىء لأخبار حبيبته .

هذا الند يتحول فجأة إلى صديق ويحارب معه عدواً يغتـال قلبيهما .

- هيا بنا يانور لتنم .. فهي بخير والحمد لله هيـا لتبـدل ملابسك وتعود لتراها .

يسير نور مع فتحي يتكأ عليه ولا يعلم فتحي من الذي يتكأ على الآخر فها هو يداوي جرح نور وجراحه مفتوحه منذ زمن لا يجد من يداويها .

بالمستشفى ...

سلمى تنظر إلى ملاكها النائم تبكي بكاء مريراً تطلب منها المغفرة وما أن تفيق حتى تخلع سلمى ثوب أمومتها الضعيف .

– كيف حالك يا آية ..؟

– بخير ..لماذا لم تعودي يا أمي إخوتي بحاجة إليك .. اليوم وقفة عرفات وغداً العيد .. أرجوك يا أمي ضعي أبي في عينيك فقد أفنى عمره في طاعتك وتربيتنا ولم يغضبك يوماً لو تصالحتما سأسترد عافيتي .. أرجوكِ إن كان لي محبة بقلبك عودي إلى البيت وتصالحي مع أبي.

وزائر لم تنتظره سلمى أو آية ...

– ماذا حدث ..؟ ماذا حدث لكِ ياابنتي ولماذا فعلت هذا بنفسك ..؟

– مرحباً دكتور عيسى ، لماذا أرهقت نفسك بالمجيء ..؟ أنا بخير والحمد لله .

– اسمعيني جيداً رأيت الأشعات والتحاليل وسيتم عمل جراحة لكِ ، سنقوم بعمل فتحة لندخل أنبوباً للمعدة للطعام .

- كلا يا دكتور ، فقد فقدت شهيتي للدنيا .

- وهذا الذي يجلس أمام المستشفى لمن تتركيه .. عنـــدما رآني أتاني مهرولاً ليطمئن عليك ، هل جزاؤه أن تقتليه ..؟ إن لم تكن ترغبين في الحياة لنفسك على الأقل عيشي لمن أحبك .

يرق قلبها لحبيبها ، فتطلب من الطبيب أن يرجيء الجراحة إلى الغد وستكون في أتم الأستعداد لها.

يخرج من عندها سعيداً بأن أعاد الحياة تسري بشريان جف شوقه إلى الدنيا .

إحدى الممرضات سألت عن هذا التمثال الحيّ الـــذي زرع نفسه أمام أبواب المستشفى لايبرحها .

عرفت حكايته وحكاية عروسه المريضة فرقت لحالهما .

تدخل الممرضة إليها بعدما ذهب الجميع تبشرها بزيـــارة لم تتوقعها فتفرح آية ..

لتدخل على حين غرة زائرة هي أيضا آخر من تنتظـــر و لم تفكر فيه لزيارتها ..

- معقول .. صفاء .

وهي تبكي بشدة ....

- آية .. حبيبتي .. كيف حالك والله أموت منذ علمت بما حدث ..؟ ماذا فعلتِ لا أحد يستحق أن تضحي بعمـــرك

لأجله كلهم لا يعرفون قيمتنا .؟ . آية والله أحبك .. هل تغفرين لي كل ما فعلته معك ..؟ لا أدري لماذا كنت أفعل هذا بكِ ..؟ أرجوكِ سامحيني.

لأول مرة تصدق آية صفاء وتتذوق الصدق في دمعها الذي يهطل .

- أنتِ أختي ياصفاء .. لاعليكِ ، أنا أيضا أحبك .

- هل أطلب منكِ طلباً.

- طبعا تفضلي ..

- نور سيحضر لرؤيتي الآن .. أرجوكِ لاتخبري أمي بزيارته .. أرجوكِ .

- أمازلت تخافين مني ..؟ والله لن أؤذيك أبداً ..كيف أبرهن لك عن توبتي ..؟

- أبدا أصدقك لكن تعرفين أن أمي ترفض أن يراني نور .

تنظر صفاء لآية الحزينة بعدما كسا الجفاف والشحوب ملامحها.. فتطلب من آية أن تساعدها في إعادة الروح لتفاصيلها الميتة فتمشط شعرها وتخرج من حقيبتها المساحيق فتضع لها لونا على خديها وإصبعا يُقبل شفتيها لأول مرة تراها عروساً جميلة وتغفر لفتحي ونور عشقهما لها .. فهذا الجمال يستحق العبادة لا العشق فتواري دمعة حزن.

يدخل نور فجأة .. فتسأذن صفاء منهما وتخرج.

نور يعيد النور إلى قسماتها .

- آية لماذا فعلتِ هذا..؟

- أنا بخير لا تقلق ، عندما رأيتكَ شعرت أني شفيت .

- أيُّ خير وأنت تعانين الألم والشقاء ..؟ ليتني مكانك .. أكاد أموت لأني سبب ما أنت فيه .

- ماذا تقول أنا فداؤك يانور .

- أنا فداؤك حبيبتي ، أضحي بعمري لأجلك .

- أتصدق تنقشع آلامي بحديثك وإن مت فسأشكر ربي لأنه لم يبخل عليّ بل منحني قلباً كقلبك يحبني .؟

يدخلان في نوبة بكاء شديدة تقتلهما معاً ....

الممرضة وصفاء يقفان بالخارج يتلصصان على العاشقين ودموعهما تنهمر انهماراً .

وبحروف مبللة بدمعهما .....

- ما رأيك يا آية هل أحضر المأذون الآن لنتزوج حتى لا يفرقنا أحد .؟

- كلا يجب أن توافق أمي أولاً .

تذهب آية في غيبوبة فيهرع نور إلى الممرضة ..

تعدوا الممرضة ..تكاد تنزلق قدماها من لزوجة الأرض التي بللتها دموعها .. صفاء رحلت وهى شبه فاقدة لوعيها من كثرة البكاء واحساسها بالندم تجاههما .

تحضر الطبيب ليسعفها .. يتعجب وهو يقيس ضغطها ويسمع دقات قلبها الواهن فبين النبضة والأخرى مسافة عمرها الموجوع .

يعود إليها نور يحملها بين ذراعيه وهو يسمع حفيف الوجع الصادر منها يحاول ارتشافه لعله يخفف عنها أو يأخذه منها.. يبكي فيبلل شعرها ويكتب بدمعه عبارات حبه وحنينه وخوفه عليها.

تدخل الممرضة ومازالت الدموع تسري تصرخ مشاعرها مضطربة حزينة وهى تضع المحلول في محاولة لإنقاذ شبابها وتقول باكية ..

– آية .. افيقي نور إلى جوارك لن يفرقكما أحداً صدقيني .

تفيق آية لتجد نفسها بين ذراعيه فتتمنى لو تزهق روحها الآن لتدفن بين ضلوعه .

– اذهب يانور فصلاة العيد ستبدأ.

– نعم يجب أن ترحل الآن فهى تعافت وقد اطمأننت عليها.. هيا قبل أن يأتي أحداً ولا تخف عليها فحبيبتك سأضعها بعيني ليجمع الله شملكما.

يرحل نور بعدما وعدها بزيارتها مرة أخرى .. طلب منـــها أن تتشبث بالحياة لأجله ..

فترمقه بنظره تسير معه كقدم ثالثة .. يقف عند الباب ينظر إليها فتقرأ بعينيه كل حروف شوقه وحبه.

تأتي أمها ....

- كيف حالك يامينه ..؟

- بخير .. لكني أشعر ببعض الوجع في جوفي .. أمي أشعر بالخوف ولا أعلم السبب .. أرجوكِ اقتربي ضميني إلى صدرك لعل الخوف يذهب .

- تعالي ياقلبي .. ما تخافيش نا جنبك .

تحتضنها سلمى تدفن آية رأسها بصدر أمهـــا بحثـــا عـــن الطمأنينة والدفء .

تُقبل سلمى رأسها وتأخذ نفساً عميقاً ،.......

وفجأة شيء ما يجذب رأسها للماضي البعيد لتحيا - رائحة - لم تشمها منذ عمر مضى .

فيصرخ قلب سلمى وتتأوه مشاعرها ..نعم هي آخر رائحة سكنت جسد حميد الصغير وأمها .. هي نفسها التي تـسكن جسد آية .

تنتحب إلى الداخل ، تصرخ بدون صوت وتحدث ربها :

لماذا مازالت صغيرة ..؟ لم تر الفرح يوماً .. خذني وأتركها لشبابها .. أرحمني يارب من فراق سيودي بعقلي فيضجر قلبها من وجعه و تهطل دموعها فتسيل فوق وجه آية لتفيق من غفوتها .

– لا تبكي يا أمي .. أشعر أني بخير الآن وأتماثل للشفاء صدقيني أشعر أن عافيتي ترد إليّ الآن حضنك يا أمي أعاد الحياة والشفاء لجسدي .

تشم رائحة الموت من مسامات جلدها فتظلم الدنيا كأن هناك قبرا أغلق فوقها و لم تعد ترى نوراً.

– آية ما تتكلميش بيش ترتاحي ياعيوني .سامحيني ياقلب أمك .. قهرتك .. قسيت عليك يا نور عيني ، سامحيني وغلاوتي عندك تسامحيني .

– بل سامحيني أنتِ يا أمي ؛ منذ كنت صغيرة وأنا أتعبك .

يدخل صلاح فتنظر إليه سلمى باكية .. تضع رأس آية على الوسادة وتجري عليه وتأخذه إلى الخارج .

– صلاح بنتي تموت .. بنتنا ماتت (صارخة) إلحقني ، إلحقوني ياناس وين نمشي ياربي .؟ إلحقوني ياناس تغني بصراخ وتلطم الخدود :

(يانا من خبارة جتني .. في عين الركبة كسرتني)[245]

تعيدها مراراً وتكراراً وتلطم خديها كأنها تغني للموت وتعزف أغنيات الرحيل .

يهرع صلاح إلى آية وما إن تراه تحاول رفع رأسها فيجري إليها ليضعها على صدره .

– أبي الحمد لله أنك جئت .. تصدق كنت أنتظرك وأخاف ألا تأتي .

– أنا بجوارك ..بماذا تشعرين ..؟

– بخير والله يا أبي .. أشعر أني استطيع الركض وقد تماثلت للشفاء.. أشعر أني خفيفة حتى يخيل إليّ أنه يمكنني الطيران .

ويهمس ....

أراها بخير .. ماهذا الذي أصاب سلمى ..؟ أمازالت تؤمن بالخرافات القديمة .؟

– أبي ضمني إليكَ أكثر ؛ أشعر بالخوف ولا أدري مما ..؟

سلمى بالخارج تجري يميناً ويساراً كالمجنونة تصرخ بأن ينجدوا عروسها فلا تجد أطباء ؛ اليوم أول أيام العيد .(تلطم خديها و تمزقهما بأظافرها)

---

[245] أه من خبر سيء جاءني كسر ركبتي

- إلحقوني يا ناس .. إلحقوني بنتي بتمـــوت .. عروســـتي الموت حيسرقها ياناس.

كل من يسمعها يجري إلى الغرفة فيجدها تبتسم بين يـــدي أبيها .. فيخرج متعجباً .!!

- إنها بخير .. ما أدراك أنها تموت .:.؟

تصمت فلا تجد ماتقوله ..فماذا تقول ..؟ أن رائحة الموت تملأ أنفها بعدما نسيتها و لم تتخيل أن تشمها في أحـــد قبلـــها وهاهي الآن تسكن حبيبتها بعد كل هذا العمر .

تصفق بيديها وعلى وجنتيها صارخة .. أن ينجدوا ابنتـــها .. تجري دون هدف كسيارة فقدت إحد إطاراتهـــا فتـــرتطم بجسد من خلفه ..

ألتفت تستنجد بمن تقابله عله يبعد شبح الموت عن ابنتـــها لتجده .

- نور ..نور ياولدي .. إلحق آية .. آية بتموت يـــانور .. حبيبتك حتفارقنا وتفوتنا إجري لها ..رجعها لك ولي إلحقهـــا يانور .

يهرع قلبه قبله .....

- آية كيف حالك ..؟

- بخير يا نور والله يا ناس أتعافى .. إرحل أمي هنا قبل أن تغضب .

- هي تعلم بوجودي .. وقد أرسلتني إليكِ أنها توافق على زواجنا .. هيا استعيدي قوتك لنتزوج وتصبحين أجمل عروس بالدنيا .

يخرج صلاح ويتركهما يأخذها نور بين ذراعيه فتطلب منه أن يضمها وألا يتركها وحدها .

- أنا بجوارك .. لا ترحلي أنتِ وتتركيني .

- ضمني أشعر أني أتنفس بصعوبة .

يتلصص سلمى وصلاح عليهما ويبكيان بكاء الندم والحزن على رحيل شمسهما وعروسهما .

تقف الصورة فوق فراش المرض ليسود الـــصمت فيثقـــل رأسها بين يديه ..

يصرخ صرخة مدوية ....آية ....

يدخل صلاح .. يأخذها من بين يديه يجري نور إلى الخارج صارخاً يلوك أشواك الموت بفم قلبه وهو يعلم إن الدنيا لم تعد خارج غرفتها بل سيقع منها على هوه سوداء لا يعلـــم أيـــن مستقرها.

سلمى تضرب وجنيها ترى أختها فتعـــدو إليهـــا تـــصرخ وتقول..

(وينك ياخيتي ماتجينا .. في ساعة تسبيلة عينا)[٢٤٦]

الجميع بالمستشفى يبكون عروس العيد من قـــدمت قلبـــها وعمرها قربانا للحب ليدفن في قلبها و لم يهزمه أحد .

تقابل سلمى نور وتحتضنه .. لأول مرة يجتمعان فهي تعلـــم أن جزء من ابنتها حياً داخله لم يأخذه الموت .

يبكي الجميع ..وتمطر السماء كأنها تبكيها ، فتُشيع عروس العيد إلى قبرها وكأنه يشتاقها منذ أن كانت تلعب داخله وهي صغيرة .

يتسابق شباب الحيِّ في حمل نعش العروس .. الكل يرتدي ملابس العيد الجديدة في مشهد مأسوي كأنه عيداً في الـــسماء وعيداً في الأرض .

يشق الزحام شاب آخر قتله الحزن وقضى عليه رحيلـــها.. وهاهو يُشيع قلبه معها وما أن يضعوها فوق كتفيه ....

تتغير الدنيا فيراها ترتدي ثوب زفافها الأبيض يمسك يـــدها تبتسم له ويبتسم لها ..

---

[٢٤٦] أين أنت يا أختي لماذا لم تحضري وقت إغماض عينيها

والدفوف والمشاعل حولهما يراقصها وهـــي بـــين يديـــه كحمامة عشق رقيقة تحلق حوله بكل مكان ابتسامتها تـــسكنه جنات عدن وكأنها حور عين فرت من الجنة لتسكن قلبه ..

كلما تقدم إليه أحداً لحملها نهره بعنـــف ليكمـــل الـــسير بعروسه وحبيبته .!!

بلحظة يتساقط المطر وكأن السماء لم تستطع أن تـــواري حزنها عليها .! فيواري المطر دموع أحبابهـــا فتـــبرق الـــسماء بعرسها وترعد السماء بدفوفها .. ولم يتركها لهـــم إلا وهـــم يجذبونها منه عنوة لترقد بسلام .

نور سجنه إخوته بعدما قيدوه خوفًا من جمـــوح مـــشاعره وهو يصرخ ويتأوه ويطلم خديه كامرأة مات زوجها صراخه يوقظ الثقلين .. يحاول دك باب أسره واقتلاعه بمعاول حزنـــه ويستجديهم بأنه يجب أن يكون بجوارها في ليلتها الأخيرة وأن يؤنسها في وحدتها فلا مكان لأحد بجوارها غيره .. لكـــن لم يسمع أحد وجيب قلبه الذي ألحده داخل صدره.

يذهب كل يوم يطرق عليها ؛يشعر أنها فتحـــت نافـــذتها ويتهامسان حتى لُقب بالمجنون ليهجر الناس ويسكن بجوراها .

فيهيم على قلبه حتى يجدوه وقد ....

- مواليد الإسكندرية
- عضو اتحاد كتاب مصر
- عضو اتحاد كتاب الإنترنت
- عضو نادي القصة بالقاهرة
- عضو شبكة القصة العربية
- عضو جمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية
- عضو فخري بدار ناجي نعمان (بيروت)
- عضو بلجنة المسرح والموسيقى بنادي سموحة الاجتماعي
- عضو بالعديد من الجمعيات الأدبية
- عملت مراسلة صحفية لبعض المجلات العربية
- تم تحويل قصة "الحياة ورقة" إلى عمل إذاعي بإذاعة الإسكندرية
- شاركت في العديد من فعاليات المؤتمرات الأدبية
- نشرت أعمالها في أكثر من مجلة وجريدة مصرية وعربية
- مقال ثابت بمجلة (جميلة) عدد شهري
- مقال ثابت بجريدة (الشاشة العربية) عدد نصف شهري

- المركز الأول بمسابقة صلاح هلال للقصة القصيرة ٢٠٠٦
- جائزة الاستحقاق مسابقة ناجي نعمان العالمية بلبنان ٢٠٠٧
- جائزة اتحاد كتاب مصر في القصة القصيرة ٢٠٠٧
- المركز الثاني في مسابقة الأعمال المتميزة للمرأة العربية فرع القصة القصيرة التابعة لجامعة الدول العربية.

إصدارات

- وصية أم.. مجموعة قصصية
- تكات الخريف.. مجموعة قصصية
- عندما تموت الملائكة.. رواية
- الفرار إلى قفص.. مجموعة قصصية
- الساعة العاشقة صباحاً.. نصوص نثرية
- الغزال العاشق .. رواية

تحت الطبع:

- العديد من الأعمال إن شاء الله